المرافعة الأولى : المدنيّة

الفصل الثالث : مجتمع المدنيّة في المدينة

(عصر الآلهة المقنّعة والملوك المتسترين)

1-المقدمة :

تناول القائد عبدالله أوجلان في الفصل الثالث من مرافعته الأولى ، مجتمع المدنيّة في المدينة حيث شرح المجتمع السومري شرحاً توضيحياً ، تفصيلياً ،موضحاً فيه أموراً عدة أهمها : تأثير ثقافة تل حلف على المجتمع السومري ، والوظائف الثلاث للزقورات (معابد مدرجة) ، وتعريف واسع لشخص الكاهن ولوظائفه وأعماله الأساسية في تلك المعابد ، كما بين أوضاع المرأة والعائلة في نظام الزقورات ، وشرح دور الزقورات التجاري الهام ، مبيناً نشوء نموذج أولي مصغّر من مجتمع الدولة الجديد في أطرافها ، وظهور دولة السلالة بعد مجتمع دولة الكهنة ، حيث تطورت السلالاتية نتيجة قلب نظام المرأة –الأم ، وتجذرت الإدارة البطرياركية والأبوة ، ليقترب بذلك مجتمع الدولة الجديد من المجتمع الطبقي ، وليبدأ مجتمع المدنيّة المعبّر عن الثقافة الذكورية السلطوية بالظهور والانتشار كموجة ثانية مشابهة لسياق انتشار ثقافة المجتمع النيوليتي المنبثقة من الهلال الخصيب نحو جميع أرجاء العالم ، ومحللاً بذلك المدنيّة ، ومفسراً سبب حاجة مجتمع المدنيّة والتي تنعت بحضارة المدينة إلى التقنّع ، ومسلطاً الضوء على دور الأنشطة المؤسساتية في مجتمعات المدنيّة ، مبرزاً قضايا انتشار مجتمع المدنيّة ، بدءاً من قضايا توسع المدنيات ذات الأصول السومرية والمصرية ، ومروراً بالتطورات الحاصلة في ثقافة الصين والهند والهنود الحمر ، وانتهاءً بقضايا توسّع المدنيّة ، وقضايا المقاومة ، ليستخلص إلى نتيجة مفادها : إن مواضيع الثقافة الأيديولوجية والثقافة المادية شائكة ، لكنها في الوقت ذاته حقائق تقتضي البحث والتدقيق ، ليختتم بذلك القائد أوجلان مرافعته الأولى .

2-مرحلة تل حلف وأثرها في المجتمع السومري :

تميزت مرحلة التمأسس النيوليتي ، والمسماة بمرحلة تل حلف ،بالغذاء الوافر والمتنوع ، والتي مرت بفترة ازدهار باهر ، وهي تقع إلى الشمال من الحضارة السومرية المُنشأة في الحقول القصبية الرسوبية ، والأراضي الخصيبة المطمورة بالمياه في أماكن تقارب نهري دجلة والفرات ، وامتزاجهما ضمن أراضي ميزوبوتاميا السفلى ، والذي أدى إلى ذلك هو المجتمع القروي الذي أسفر عن الذهنية المكتشِفة لتقنيات الإنتاج التي لعبت دوراً كبيراً أيضاً ؛ فالاستقرار يعني الحقول والتمأسسات الاجتماعية المتنامية بتغذية بعضها بعضاً ، أما التمأسس فيعني فيما يعنيه تنظيم الذهنية المجتمعية وتحقيق جماعيتها ، فالشروط المناخية الملائمة ، والأمطار الغزيرة تجعل من الري ثانوية ، ومحدودية نطاق الري ، واعتماد الغلال على الأمطار ، قد أعاقا التوسع وزيادة التعداد السكاني ، وعلى الرغم من أن الأراضي الواقعة أسفل نهري دجلة والفرات ملائمة جداً للري ، وتربتها خصيبة معطاء ، إلا أن المستوطنين الريفيين الأوائل قد انحدروا إلى المجتمع السومري من الشمال ، من ثقافة تل حلف ، والتزايد في التعداد السكاني قد أرغم الأهالي على الحراك الدائم ، وإلى الزيادة والاتساع في القرى ، والانتشار في الجهات الأربع ، وكلما زاد الانتشار هبوطاً نحو الجنوب ، حيث الأمطار القليلة ، زادت الحاجة الحتمية إلى الري ، واستوجب وجود تنظيم شامل ، والذي تحقق حول المعابد المسماة بالزقورات .

3-تعريف الزقورات :

هي معابد مدرّجة ، فهي أشبه بنموذج مصغّر بمجتمعات المدنية اللاحقة على صعيد التأثير المعنوي ،إنه تمأسس مثالي لدرجة أنه غدا النموذج الأصل المولّد لمجتمعات المدن الراهنة ، والتي يناهز تعدادها مئات الآلاف ، ويزيد عدد سكانها عن الملايين ، فهو يُعد الرحم الأم لنمط تنظيم الدولة المتأسسة في مجتمع المدينة ، فالزقورات في زمانها ، لم تكن مركز المدينة فحسب ، بل هي المدنيّة ذاتها ، والمدائن بدورها كانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

1- المعبد (منزل أو موطن الرب)، وهو قسم معني بتوليد المشروعية و تمكينها .

2- قسم الإقامة الأوسع قليلاً ، والمخصص لمدراء المدينة .

3- الأماكن الأوسع قليلاً لإقامة العاملين ، الذين يشكلون الشريحة الأوسع .

فالزقورات تؤدي هذه الوظائف الثلاث معاً ، كأول مثال من نوعه في العالم .

4-الوظائف الرئيسية الثلاث للزقورات :

تتميز الزقورات بثلاث وظائف رئيسية ، ذات أهمية حياتية وهي :

1- الوظيفة الأولى : يزاولها العاملون ضمن الأراضي ، والذين يمكثون في الطابق السفلي ، ويعدون من أملاك الزقورات ، ويقيم معهم أيضاً صانعو الأدوات والوسائط .

2- الوظيفة الثانية : وهي المهام الإدارية التي يزاولها الكهنة القاطنون في الطابق الثاني ، إذ يتوجب على الكاهن حساب الأعمال الإنتاجية المتعاظمة ، وتأمين المشروعية اللازمة (قوة الإقناع) لتحقيق العمل الجماعي بين العاملين ، فالكاهن بذلك يدير شؤون الدين والدنيا معاً .

3- الوظيفة الثالثة: تزاولها الموجودات الإلهية في الطابق الثالث .

وبناءً على مجمل الوظائف الرئيسية السابقة ، فالزقورات لا تُعنى بالدولة والإنتاج الوفير والمجتمع الجديد فحسب ، بل وتُعنى بإعادة البناء والتخطيط لعالم كافة المصطلحات ، الحساب ، السحر ، العلم ، الفن ، العائلة ، بل وحتى المقايضة الأولى ، إلى جانب الاهتمام بشؤون الرب ، علاوة على إعادة تخطيط وبناء كل ذلك ، وربطه بمشاريع ملموسة ، والكاهن هو المسؤول والقائم والمشرف على تلك الأعمال .

5- الكاهن وأعماله الأساسية :

الكاهن أول مهندس للمجتمع ، وأول معماري ، وأول رسم تخطيطي للنبوة ، وأول اقتصادي ، وأول مدير ، وأول رئيس عمل ، وأول ملك ، وهو المبادر الأول ، فهو رأسمالي زمانه ، ورب العمل أو الآغا ، لأنه مهتم بوظائفه التاريخية الموكلة إليه ، وهو مؤسس المدنيَّة ، و المُمهِر

للمجتمع الجديد بطابعه ، ذات صلاحيات لا حدود لها ، وأعمال لا تحصى ، ولعل أهمها هي :

1- تأسيس الدين الجديد والإله الجديد ، يأتي في صدارة الأعمال المهمة للكاهن ، وذلك لأن جوهر اختراع السومريين للدين يتجسد في تشكيل حلقة الوصل ، لسد ما يبدو وكأنه فراغ ، أو انقطاع لمرحلة الانتقال من عبادة الطوطم (أي كيان يمثل الرمز للقبيلة) القديمة ، نحو الأديان الإبراهيمية المتجاوزة للوثنية ، فهم يُنشئون خليطاً من الإله بصفته مصطلح القوة الناظمة للسموات ، ومن دين الطوطمية المحدّد لهوية المجتمع ، ولهذا فالكاهن كان يخصص الطابق العلوي من الزقورات للآلهة ، ويقوم بالتكتم إلى أقصى الحدود على وجود هذا الطابق ، ويوثّق رئيس الكهنة تعليماته بعدم صعود أي أحد إليه سواه ، فهو بذلك يُزيد من تبجيل الناس ، ويثير فضولهم أكثر، ويوطد من تبعيتهم وانصياعيهم أكثر ، حيث يثابر رئيس الكهنة على نشر أقوالهم بين المجتمع بكونه التقى الإله وتكلم إليه في هذا الطابق ، ومن يرغب سماع كلام الرب ، فما عليه سوى النظر إلى كلام رئيس الكهنة ، ذلك أنه الناطق والمفوّض الوحيد باسم الرب ، وهو الشخص الناجح في تركيز فكره في طابق (بيت) الرب ، ولكي يكون تنظيم المجتمع الجديد مؤثراً ، لا بد أن يسير وفق الكلام الدائر في المحادثة بينه ، وبين الرب .

2- هندسة المجتمع ، هي الوظيفة الثانية للكاهن الذي يقوم بالتخطيط للمجتمع الجديد ، وتشييده من جهة ، وبتدبر شؤونه من جهة ثانية ، وكانت هذه المهمة تسيّر في الطابق الثاني من الزقورات أي في طابق الكهنة ، وهكذا ، كان يتكاثر الكهنة كمفوّضين عن الرب ، وبذلك شكلوا طبقة مقدسة تحت إشراف رئيس الكهنة ، وبالتالي شكلوا أول طبقة هرمية (الإدارة المقدسة)كحفنة إدارية معدودة لكل مدينة على حدة ، وقد شهدت غرف الكهنة في الطابق الأوسط وضع اللبنات الأساسية لعلوم الكتابة ، الرياضيات ، علم الفلك ، الطب ،الآداب ، علم اللاهوت ،فالطابق الأوسط في نفس الوقت نموذج مصغّر للمدرسة والجامعة ، أي أن طابق الرب نموذج مصغّر للمعابد ، وطابق الكهنة نموذج مصغّر للمدارس .

ولهذا فلا يمكن استصغار مساهمات الكهنة السومريين في الاكتشافات ، أو إغفال دور اختراعهم الكتابة ، وعلم الفلك والرياضيات والطب واللاهوت

في ترسيخ الأسس العلمية للحضارة ، حيث كان للكهنة السومريين مكانة الصدارة في مرحلة البدء بالعلم ، ولهذا السبب فقد سُمّي ملوك سومر الأوائل بالكهنة –الملوك ، لأن الكهنة –الملوك هم أوائل ملوك مجتمع المدينة ، فقد كان لكل مدينة في البداية كاهن –ملك ، ودافعهم الأولي وراء إدارتهم الملكية كان في الشرعية المتحققة عبر العلم واللاهوت .

3- ومن الأعمال المهمة التي كان يمارسها الكاهن ، هي قوة الإقناع ، والتي تحتل مرتبة الصدارة في تشكيل أولى مجموعات العمل ،حيث كان يتواجد طابق العاملين في الأسفل ، وهؤلاء العاملون في الطابق الأول ،هم أول من رصّف أرضية الاستعباد ، و القِنانة ، والتمايز الطبقي ، والتحول العمالي ، فالعمال الذين لم يتفاهموا مع قبائلهم، وتنافروا معها نتيجة الاشتباكات القبائلية الناشبة مع زيادة تعداد السكان والهجرات ، ورأوا المعبد ملاذاً لهم ، فقد استفادوا من ازدياد الغلال الذي أفضى إلى تغذيتهم بنسبة أفضل ، مقارنة بالمكان الذي أتوا منه ، وإلى جانب هذا المؤثر ، فقد لعب مؤثر آخر دوراً مهماً ، وهو قدسية العمل في تشييد المعبد ، والمشاركة في إنتاجياته .

6-أوضاع المرأة والعائلة في نظام الزقورات :

لعبت المرأة دورها كموضع عشق في قسم من أقسام الزقورات ، فالذي يُحظى بعشق فتاة من صفوة العوائل ، يكون أمراً مشرفاً ، حيث تؤخذ الفتاة المتميزة على المعبد لتكرس ذاتها له ، فيغدو ذلك مذهلاً في نظام الرهبان ، حيث تتلقى تلك الفتاة جميع دروس الجماليات في نظام سرايا الزقورات ، إلى أن تتمرس ، وتحترف بعض الأنشطة مثل الفن والموسيقا ،كما تعرض على صفوة الرجال الوافدين من المناطق المجاورة لنيل إعجابهم ، وقد تتزوج من أحدهم في حال التفاهم والاتفاق ، وبهذه الشاكلة ، يزيد المعبد من وارداته ، ومن نفوذه أضعافاً مضاعفة ، فالحظيّ بامرأة من المعبد لا يكون إلا من نصيب رجال العوائل النبيلة ، فضلاً عن أن هؤلاء النساء اللواتي عشْن في المعبد ، كنّ يجسدن قوة تأثيره بين صفوف العشائر الجديدة ، ويربطن أنفسهن بمجتمع الدولة الجديد ، لأنهن قد تلقين تدريب المعبد ،إنهن أشبه بالعملاء الأكثر إنتاجاً وعطاءً في مجتمع دولة الرهبان الجديد ،فتحقيق جماعية المرأة على هذا النحو ، يُعدّ نموذجاً أولياً لفن (بيت الدعارة) ، فكلما زاد انحطاط المرأة ،كلما تحولت من إلهة

المعابد النبيلة الفاضلة ، ومن أنثى العشق ، إلى أسوأ عاملة يائسة بائسة ، تعرض نفسها في بيت الدعارة ، والمجتمع السومري هو صاحب شرف او لا شرف ، كونه أول نموذج في هذا المضمار وذلك لأن تنظيم شؤون المرأة في الزقورات السومرية ، قد طُوّر لتسخيرها في خدمة المجتمع والدولة الجديدين .

7- دور الزقورات في التجارة :

للزقورات دور ساطع وجلي في التجارة الناشئة كنشاط اجتماعي حديث العهد ، فهي قد أدت دور المركز التجاري أيضاً في الوقت ذاته ، حيث كان فائض الإنتاج والأدوات التي يبتكرها الحرفيون موضوعاً للتجارة ، وقد بدأ المجتمع السومري بالانتقال من نظام الهدايا والعطايا (بين العوائل والمجموعات)على نظام المقايضة والذي انتشرت فيه ظاهرة التبضع (الإنتاج بغرض المقايضة) ، وبالتالي من المحتمل أن تكون الزقورات مجتمع التجار الأوائل .

و لهذا ، فمن المحقق أن التجارة لعبت دوراً مؤثراً في نظام الكهنة ، فبالإضافة إلى قيام التجار بتصدير فوائضهم الإنتاجية والمتاجرة بها ، فقد كانوا مضطرين لتغطية نسبة ملحوظة من احتياجاتهم الناقصة ، (ثمة العديد من المواد الناقصة للمدائن الموجودة في الوادي السفلي من ميزوبوتاميا ، وبالتالي ، فالتجارة أو الاستيلاء ضرورة اضطرارية ، وربما تم القيام بكليهما) ، فهذا هو الهدف من ترسخ نظام المستوطنات الذي اكتنف المنطقة كشبكة عنكبوتية ، ولهذا الغرض بالذات أقيمت العديد من المستوطنات على ضفاف نهري دجلة والفرات .

وبناءً على ما سبق ، فمن المؤكد قيام نموذج أولي مصغّر من مجتمع الدولة الجديد في أطراف الزقورات ، والذي يعد أول نموذج ملموس لصعود مجتمع الدولة على أرض الواقع ، والذي أثر في نظام المدنيّة برمته ، فهو يرجع في أصوله إلى الزقورات السومرية ، وبهذا تكون ولادة المجتمع المدنيّة الدولتية قد تمت في رحم معابد الكهنة .

8- ظهور دولة السلالة بعد مجتمع دولة الكهنة :

ظهرت دولة السلالة بعد مجتمع دولة الكهنة ، والسلالة في مستهلّ تشكلها ،تعد انطلاقة هوياتية ، وهي الأمتن والأمنع ضمن سياق التطور الاجتماعي الذي حصل بين صفوف المجموعات اللغوية ، والثقافية الآرية ، فمنبع هذا التطور هو المجموعات الآرية ، وليس المجتمع السومري ، وبلا ريب أن تاريخ السلالات قديم ووطيد في ميزوبوتاميا ، فمع تمايز الأثنيات إلى هويات متباينة ، كان لا بد من بدء التطور السلالاتي ضمن نظام العشيرة والقبيلة ، بحيث تلتف الشخصيات الخبيرة بشؤون الذود عن القبيلة وصونها ، وبشأن مَوْقعتها في المناطق المعطاء وحل مشاكلها الداخلية ، ومن المحتمل بروز عائلة أو عشيرة ما للأمام أكثر ، بحيث تشكل إدارةَ القبيلة أو تستولي عليها ،ولا شك أن رضا أعضاء القبيلة عنها ، وقبولهم إياها أمر معين في ذلك ، كما أن أواصر القرابة فيما بينهم لا تزال سائدة ، ولا تسمح بوجود أي دخيل داخلها.

وبلا شك ، فإن النظام السلالاتي يمتاز بخاصية مهمة ، وهي أن رغبة العائلة ومؤسسة العائلة في امتلاك عدد جم من الأطفال الذكور ، تعتبر اللبنة الأساسية للأيديولوجية السلالاتية ، أي أن تعدد الزوجات ، والرغبة الدائمة في إنجاب الأولاد الذكور ، هما المرام الأولي للأيديولوجيا السلالاتية ، ويكمن الدافع وراء ذلك في امتلاك القوة السياسية .

ففي الوقت الذي كان فيه الرجل (الزوج) في عهد المرأة –الأم ، غير معروف ، وذلك لأن المرأة- الأم كانت لا تبحث عن الجماع الجنسي لأجل اللذة ، ولا تنجر وراء شهواتها ، بل أنها تمارسه بهدف التوالد والتناسل ، والأطفال كانوا ينتمون إلى المرأة –الأم ، بسبب كدحها في تنشئتهم وتربيتهم ، فإنجابها إياهم ، وتغذيتها لهم يمحنها هذا الحق طبيعياً ، والرجل كان مهمّشاً وقتها ، ولم تُنشأ بعد اصطلاحات الأبوة والزوجية .

إلا أن السلالاتية تطورت نتيجة قلب نظام المرأة -الأم رأساً على عقب أيديولوجياً وعملياً ، وتجذرت الإدارة البطرياركية بتحالف خبرة (الرجل المسن) مع الحاشية العسكرية ل(الرجل القوي) ، إلى جانب الشامان (وهو من يعتمد على استحضار القوى الخفية لتجنّب كارثة ما)، والذي هو نوع من قيادة القدسية التي تسبق عهد الكهنة ، في هذا النظام الجديد المسمّى بالنظام الأبوي .

فخبرة الرجل المسن ، تعبر عن تجارب الحياة المتراكمة ، والرجل العجوز هو الشخص الحكيم الذي تؤخذ مشورته ، وتُنهل منه المعارف والحكم ، والمجموعة بحاجة إليه.

أما الرجل القوي ، فيعبر عن السعي للنفاذ من حصار المرأة-الأم ، من خلال القوة المكتسبة من احتراف الصيد ، ولعل الاتحاد الذي أسسه مع الشباب اليافعين الساعين للاستفادة من خاصيته هذه ، ومن ثم التحالف الذي أبرمه مع شيوخ القبيلة ، قد عزز من النظام الأبوي ضد النظام الأمومي .

وأما الشامان ، فهو يتكفل بوظيفة الكاهن والساحر معاً ، فهو معلم ، وربما أول محترف في المجتمع ، حيث تتأسس مهنية الشامان في المجموعات تدريجياً ، وعلى الرغم من اختلاطها ببعض الشعوذة ، وعادة ما يكون الشامان رجلاً ، ومع تحالف هذه القوى في إنشاء السلالاتية ، فإنها تلحق ضربة قاضية بالنظام الأمومي .

وبلا ريب ، فإن بروز السلالاتية والبطرياركية والأبوّة ،برهان ومؤشر على الدنو من المجتمع الطبقي ، فالسلالات تستفيد من قواها العسكرية لإنجاز الثورة السياسية في خضم منازعاتها مع دولة الكهنة ، وإدارة السلالة شبيهة بنظام سياسي أكثر علمانية ، مقارنة مع إدارات الكهنة اللاهوتية ، حيث تُنشأ إلهيات جديدة ، وتتدنى مرتبة الكهنة ، ليغدَوا نواباً في القيادة السياسية ، وعلى الرغم من قيامهم بأدوار مهمة ، إلا أنهم يخسرون قواهم طردياً ، ويتحولون إلى مروجين مقدّسين للنظام الجديد ، وإلى أدوات ساذجة لتأمين شرعيته ، والملوك المنحدرون من السلالات لم يترددوا عن إعلان ذواتهم (ملوكاً-آلهة)، بهدف الاستفادة من درع الشرعية التي تؤمّنها لهم طبقة الكهنة المؤسسين للدولة ، ويتجذر التمايز الطبقي مع مرور كل يوم ، ويتزايد تعداد المدائن ، و يُثبِت نمط المجتمع المسمى ب (المدنيّة السومرية) ديمومته وتمأسسه عن جدارة ، وهكذا نقلت السلالاتية في مجتمعات الشرق الأوسط تقاليدها الغائرة في القدم إلى يومنا الراهن ، لذا ، فعدم تطور أنماط نظم الجمهورية والديمقراطية في الشرق الأوسط ، مرتبط عن كثب بالتدول النابع من نظامي الكهنة والسلالات .

9- مزايا ثقافة مجتمع المدنيّة :

إن ما يميز المدنيّة عن الثقافة كمصطلح ، هو ارتباطها بالتمايز الطبقي ، فالمدنيّة معنية بثقافة الطبقة ودولتها ، وتتميز ثقافة مجتمع المدنيّة ب:

تمأسس المدن ، التجارة ، الإلهيات ، العلم ، تطور البنية السياسية والعسكرية ، بروز القانون على حساب الأخلاق ، ظهور الجنسوية الاجتماعية الذكورية .

10-أهم إنجازات مجتمع المدنيّة :

تُعتبر القوانين أحد أهم إنجازات مجتمع المدنيّة ، وقد برزت تزامناً مع الانقسام الاجتماعي ، والتمايز الطبقي والتدول ، ويرتكز أساس القوانين على الأخلاق ، ولكن ، ومثلما أن تدويل الأديان المشحونة بالقدسية قد حولها إلى دين دولة ، فإن تدويل الأخلاق أيضاً فتح الطريق أمام القانون ، أي أن القانون يعبر عن أسس ترتيب قواعد الأخلاق ، وعن مصالح الطبقة الحاكمة وأملاكها وأمنها في المجتمع الدولتي الجديد ، وهذا بدوره ما يعني (دستور) هذا المجتمع .

ونعثر على أول مثال للقانون في الوثائق المدونة في المجتمع السومري ،والتي تسبق قوانين حمورابي (حاكم عموري من السلالة البابلية الأولى) بأمد طويل ، وبالتالي فموطن ولادة القانون ليس روما أو أثينا ، بل وُلد في مدائن سومر ، اما في عهد أثينا وروما ، فيتم التشديد على أواصر القانون مع الجمهورية والديمقراطية ، ويُضفى عليه الطابع الرسمي ، ويعاد ترتيبه وتدوينه ، أما ولادة الجمهورية والديمقراطية فهي ثمرة تطلّع الطبقة الأرستقراطية (أسياد المجتمع العبودي النخبويين) إلى نمط الإدارة الجماعية ، بغرض سد الطريق أمام المَلَكيّات والديكتاتوريات الاستبدادية (الإدارة المزاجية للأشخاص) ، وبالرغم من مصادفتنا لآثار هذا النمط من الحكم في المجتمع السومري ، إلا أن صياغته الرسمية الأولى المدوّنة ، نعثر عليها في عهد أثينا وروما من سياق الحضارة ، فولادة الجمهورية والديمقراطية ترتبطان بالسعي للتغلب على المصاعب والفوضى وإشكاليات الإدارة ، وإعادة ترتيب شؤونها .

هكذا ستكون النزاعات الدستورية والجمهورية والديمقراطية في ميدان القانون ، في صدارة المواضيع المتداولة في المدنيّة ذات الطابع البرجوازي الأوروبي ، وسيكون الاختراع الأخير معنياً ب (قانون حقوق

الإنسان)، لتطغى عليه الفردانية البارزة ، والممثلية الواسعة النطاق على الصعيد الاجتماعي .

وهنا، يتوجب النظر إلى التقدم العلمي الحاصل كجزء من هذه المعايير الأساسية ، فالعلم شكل من أشكال الوعي ، والميزة الوحيدة التي تميزه عن غيره ، هي تعبيره عن قسم المعرفة التي تَثبت صحتها بالتجربة ، أي أنه لا يشمل كل المعارف ، بل يحتوي المعلومات ذات المعاني الخاصة التي أثبتت التجربة صحتها ، وبشكل عام ، ما من معلومة غير مجربة ، أما التمييز بين تلك المعلومات المعتمِدة على التجربة ، وغير المعتمَدة عليها ، وبين الوضعية منها والميتافيزيقية ، وبين النظرية منها والعملية ، فيتطور في مجتمع المدنيّة ، وهو أمر مرتبط بعلاقة المعرفة مع السلطة ، ويمكن التعبير عن الروابط بين مجتمع المدنيّة وتصنيفات المعاني تلك على شكل ثنائية المعنى –السلطة ، وهذه التصنيفات الكبرى بين المعاني وتعابيرها العملية الناجمة عن ممارسة المجتمع البشري العملية ، وعن ذهنيته التي مهدت الطريق إليها ، تتعرض للسطو والتزوير على يد الشريحة المتدولة في مجتمع المدنيّة ، فأول ما انشغلت به الشريحة المتدولة ، وأحكمت قبضتها عليه ،هو ترتيبها إياها لتجعلها مصدراً لرؤيتها الاجتماعية وقوتها العملية ، أي أن المدنيّة تُرتّب وتُنظّم في كل طور من أطوارها ، بناءً على براديغما أساسية جديدة (رؤية جذرية ، ونظام جذري للعالم)، وبينما تكون هذه الإجراءات وضعية (ظواهر مرئية)لأقصى حد بالنسبة إلى الحكام ، فهي بالنسبة للمحكومين تعني الحد الأعظم من التعتيم والتعمية والتقييد ، ولقد كانت الشرعية التي تؤمنها البراديغمائيات الجديدة محوراً أساسياً ودائماً للإدارات ، نسبةً إلى الحكام الذين يمارسون الطغيان علناً ، فقد وضع الحكام كل ثقلهم في كيفية عرض مصالحهم على أنها مصالح المجتمع بل وقدره المحتوم ، وبقدر ما ينجحون في ذلك ، يكونون قد أطالوا عمر المجتمعات التي تُعتبر حضرية ، وكل مدنيّة تفتقد شرعيتها ، فلا خلاص لها من الانهيار ، حتى لو كانت يوماً ما من أعظم مدنيات العالم .

11-خاصيات مجتمع المدنيّة :

1- التمايز الطبقي : يشكل التمايز الطبقي الذراع والساق المسيّرتين للقوة الممنهجة ،وهو يشكل القوة الأكثر منهجية للسلطة في المجتمع ،و للوياثان

في مجتمع المدنيّة ،فإذا فُسّرت الدولة بأنها تكامل علاقات السلطة الأرقى ، التي تمكّن من القمع والاستغلال عموماً في المجتمع الطبقي ، فحينئذٍ ، يغدو القابعون تحت نير الضغط والاستغلال جزءاً لا يتجزأ من العلاقات هذه ، وسوف تتعدّى المدنيّة نطاق منظومة الدولة ، لتدل على قوة البناء والتنظيم المتكامل لمجمل الميادين ،بدءاً من الدين وحتى الاقتصاد ، وستصبح الوظيفة الأولية لهذه القوة المنظمة ، تشكيلَ عدد لا متناهٍ من المستويات الاجتماعية أفقياً ، وشاقولياً ، بدءاً من العبد إلى الرق العامل بصورة رئيسية .

لا بد من التشديد ،على أنه لا تتاح الفرصة أبداً لتكون اليد والقدم ذاتاً فاعلة في بنية القوة المنظمة ، فإذا كانت السلطة تنظيماً مظفراً ، فهذا يعني تحقيق الحاكمية والنفوذ المطلق على كادحيها الذين تنعتهم بالفظاظة ، وإلى فقدانهم قيمة الذات الفاعلة في ظل السلطة ، حتى وإن كانت تلك الذات موجودة لديهم قبل ذلك ، ولهذا السبب لم يحالف الحظ كل تمردات الكادحين والعبيد .

وبناءً على ما سبق ، فالتمايز الطبقي هو من أهم طبائع ومميزات المدنيّة ، لكن المعاني الاستراتيجية المتخذة اساساً في الثورات الطبقية ، بعيدة عن نيل النتائج المرجوة عملياً، حتى وإن تبدّت إمكانية ذلك نظرياً ، فجميع المدنيات والسلطات المنهارة قد أُطيح بها مع عبيدها وكادحيها ، في حين أن نسف السلطات على يد عبيدها أو كادحيها ، أمر نادر جداً ، حتى ولو حصل ، فإن السلطة الجديدة لا تعبر عن شيء أكثر من كونها آلة للمزيد من الجور والاستغلال ، حيث يترحم المرء على سابقتها .

2- السلطة : الخاصية التي يجب استيعابها أساساً ، هي مستوى تبعية التمايز الطبقي داخل علاقات السلطة الرسمية ، وماهيته ، ومدى تحليه أو خلوه من المعاني القيمة ، والممارسة العملية ، وسواء أكان السيد والسنيور (السيد باللغة الفرنسية) ورب العمل والبرجوازي في السوية العليا من الطبقة ، أو كان العبد أو القن أو العامل في السوية السفلى منها ، فهم يتلاقون في نفس المقاربة الأيديولوجية والسياسية ضمن علاقات السلطة ، ولا قيمة بارزة لاعتراضاتهم ضمنياً ، فهذه العلاقة تشبه شبكة لها ألف عقدة وعقدة ، فالعامل الذي صيّره الكاهن السومري من أتباعه وعباده ، متأثر بقوة الشرعنة المذهلة للآلهة الجديدة المبتدعة في الطابق

العلوي من الزقورات ،ولو لم يكن كذلك ، لكان من المحال إدخاله إلى هناك ، وهو يتغذى أفضل من السابق ، ويبدو أنه لا طريق آخر أمامه لتأمين تغذية أفضل ، وفضلاً عن ذلك فإنه يجري إنعاش خياله على الدوام بحقيقة الحوريات الحسناوات ، ودغدغته على صعيد إشباع رغباته الجنسية .

وإلى جانب ذلك، فهناك عروض نسائية تسهم في الخنوع للنظام الموجود والاستماتة في الامتثال له ، بدرجة ربما تناهز بأضعاف مضاعفة ما قد تنجزه الجيوش ، أو تقدمه الوسائل الإعلامية الراهنة ! فهذا العبد الجديد المتأطّر في طبقة بحد ذاتها ، ليس متمرداً لأجل الحرية ، بل هو خائن الحرية ، أو يمثل واقعة مفرغة من مفهوم الحياة الحرة ، أو ظاهرة مختلفة كلياً .

3- حالة المجتمع المنفتح على السلطة : وهي خاصية مهمة متأسسة في المدنيّة ، وهي قريبة إلى إعادة تكوين المرأة بموجب تقاليد التأنيث الخنوعي ، إذ لا تضمن السلطة وجودها ، إلا بعد التحقق من إعداد المجتمع على غرار تأنيث المرأة ، ولقد تأسست ظاهرة التأنيث كأقدم مظاهر العبودية ، حصيلة بسط نفوذ المجتمع الجنسوي ، وذلك بعد إلحاق الهزيمة بالمرأة –الأم وعباداتها وطقوسها جمعاء ، إثر صراعات ضاربة وشاملة طويلة الأمد ، على يد الرجل القوي الجبار وحاشيته ، ولربما رسّخ هذا النفوذ المهيمن جذوره في المجتمع ، حتى قبل اكتمال تطور الحضارة ، إنه كفاح عتيد ومتواصل ، لدرجة أن ثقافة المرأة –الأم قد محيت كلياً من الذاكرة ، ولم تعد المرأة تتذكر ما الذي خسرته وأين وكيف ؟ بل وغدت تعتبر الأنوثة الخانعة أمراً طبيعياً ، ولهذا السبب لم تُشرعن أو تُهضم أو تتجذر أية عبودية ، بقدر ما هي عليه عبودية المرأة .

والجدير بالذكر، بأن لهذا التكوين نوعين من التأثير الهدام على المجتمع ، أولهما : فتح المجتمع على العبودية ، وثانيهما: تسيير أشكال العبودية الأخرى كافة ، تأسيساً على ظاهرة التأنيث .

12-دور الدين في مجتمع المدنيّة :

يتستر وراء اصطلاح القدسية إيلاء قيمة ثمينة ، واستثنائية للقوت المستخدم لتغذية الإنسان ، فلدى حظي البشر بالقوت الوفير والمتنوع ، فقد نظر إليه على أنه معادل لهوياتهم المجتمعية ، فقيموه بأنه لطف الآلهة ، فراحوا يشكرونها ، فالإنسان يعجز حتى اليوم عن إدراك معنى الألوهية كمبدأ تكويني ، وكاصطلاح طالما يلوذ به لدى سعيه لإضفاء المعاني على العظمة الخلابة، وبلا ريب ، يجب عدم الخلط بين الألوهية والله ، حيث يتسم مصطلح (الله) المُنَشأ في أوساط الثقافة السامية بمعنى مختلف وخاص ، بينما الألوهية التي يُعبر عنها بمبدأ التكوين ، لأجل كافة المجتمعات البشرية ، هي اصطلاح قابل للتفسير بمعان عديدة للغاية ، ولا تزال تصون خاصيتها هذه ، فالزعم بأن كائناً محدود الآفاق كالإنسان قادر على تفسير الكون ، إنما هو دليل على المغالاة في تعظيم شأن الإنسان ، تأسيساً على ذلك ، فإن إحالة كل شيء يستعصي على الإنسان فهمه إلى مصطلح الألوهية يهذه الآفاق الضيقة للغاية من حيث المعلومات والمعارف ، يُعَدّ ميتافيزيقية حسنة .

ولقد اعتبر الكهنة السومريون الإله الذي صنعوه عاملاً معنوياً في تيسير الإيضاح لأجل المجتمعات التي شادوها ، أكثر من النظر إليه كميتافيزيقيا ، وربما كان الكهنة رغبوا لأول مرة في تطوير عاطفة الطاعة والانصياع بين المجتمع عن طريق مصطلح (الإله المعاقب على الآثام)، وهكذا يحصل تدويل الإله رويداً رويداً ، فثمة العديد من الدلالات المشيرة إلى أن العديد من أماكن جلوس الآلهة وأشكال رسومهم ، قد هدفت إلى تعزيز شأن حكام الدولة (وبالتالي إدارة المجتمع)،فالملك يواري مصالحهم الذاتية بمهارة ودهاء ، عندما يقول أنه يخوض الحرب باسم إلهه ، والحاكم هو ابن الإله المحبب ، والمعزز على الدوام، في حين أن أعداءه شياطين يجب قهرها ولعنها ، وتتشكل مجموعة إلهية على مهل ، كانعكاس ساطع للإدارة الجديدة .

لم ينعكس تطابق الإله مع الحاكم بهذا الجلاء في أي مجتمع كان ، بقدر ما هو عليه في المجتمع السومري ،حيث لم يعد ثمة أهمية للتساؤل عما إذا كان أي منهما قناعاً للآخر ، فكلما جرى تدويل الإله متجسداً في طبقة الحكام ، كلما استمر في اكتساب معانيه بصفته قوة مبدعة ، وموجهة ، ومراقبة سامية على رأس المجتمع ، وبقدر ما يحظى الحاكم بالخصائص

والصفات ، فلن يتخلف إلهه أيضاً عن التحلي بمزيد من الخصائص والصفات ، وبقدر ما يدار المجتمع بالفضيلة ، فسيكون ذلك برهاناً على مدى متانة أواصر الحاكم مع الألوهية بالمثل ،وهكذا يغدو جزم الرعية داخل المجتمع بالتمييز بين الإله والإداري الحاكم ، أمراً محالاً مع مرور الزمن ، ولتطور الميتافيزيقيا السيئة علاقة مع هذه الأحداث ، فالألوهية المنشأة تبدأ بالتحول إلى ميتافيزيقيا سيئة ، وعقب هذه المرحلة ستُسخّر كافة مجتمعات المدنيّة القوة السحرية للدين والإله المكتشفَين في شرعنة الحكم والحكام بصورة دائمة ، ورغم بقاء الإله المبجل والخالق والمنجب ، عالقاً في زاوية الفكر والعاطفة لدى المسحوقين والرعايا ، إلا أن الإله والدين الجديدين المتدوّلين ، سيعبران عن تأدية دورهما العلمي بواسطة عباد الحاكم المعزز والمحبوب.

والجدير بالذكر أن هناك عرىً وثيقة بين تعداد الآلهة وشكل المجتمع ، فالتعددية الألوهية هي مفهوم الإله في العصور التي سادتها المساواة بين العشائر ، في حين أن تناقص عدد الآلهة وترتيبها وفق مستوى عظمتها ، مرتبط عن كثب ببروتوكول (سجل أو مدونة) الحاكم وأعرافه السياسية ، وسمو الإله الأكبر تدريجياً ، يعد تطوراً محافظاً على أهميته بين صفوف الحكام ، وقد دلّ التناقص التدريجي لتواجد الإله ضمن الإدارة على سقوط الأقنعة عن الحكام من جانب ، ومن جانب آخر سلط الضوء على ما تعنيه الدولة ، وعلى الجهة التي تخدم مصالحها ، وهذا ما يعني خروج الدين من كونه أداة شرعنة وطيدة كافية ووافية ، ورغم هذه التطورات ، فإن مجتمع المدنيّة الذي يتطلع إلى الاستمرار بوجوده ، قد عمل على تسخير الدين في تأمين الشرعية ، بقدر لجوئه إلى الطغيان والعنف بأقل تقدير ، فخوض الصراعات باسم الأديان والمذاهب ، إنما يرمي أولاً إلى تأمين إشراك المجتمع برمته فيها ، هكذا جرى دائماً خوض الصراعات العظمى، والطويلة المدى بين المدنيّات تحت قناع صراع الأديان الكبرى ، وبروز الحروب في مدنيّة الشرق الأوسط إلى المقدمة باسم الإسلام والمسيحية والموسوية ، إنما يوضح الروابط بين المدنيّة والدين بجلاء فاقع ، لدرجة أنه لايبقى هناك داع لمواراتها ، وقد بلغ هذا الوضوح أعلى مستوياته مع إعلان الأديان المذكورة أيديولوجية رسمية للدولة ، ومثلما يُلاحظ دوماً في كل ظاهرة تبلغ قمة ازدهارها ، فإن أهمية الأديان بدأت بالتهاوي بعد هذه

المرحلة ، أما التيارات المذهبية المعارضة ، فطالما أصبحت تمثل راية التمرد لدى المجتمعات الضيقة المهمشة الباقية خارج نطاق مجتمع المدنيّة ؛ إضافة إلى كونها تعكس تناقضاتها الطبقية أيضاً إلى حدٍ ما ، ومع إنشاء الدولة القومية الرأسمالية ، تحولت هذه المذاهب إلى نوع من القوموية ، لتغدو مجددا قناعاً موارياً للحروب الدموية الناشبة ، ولكن تحت هذا الغطاء في هذه المرة .

13- دورالفلسفة في مجتمع المدنيّة :

تتميز الفلسفة بأهمية ملحوظة في تاريخ الحضارة ، رغم محدودية نطاقها مقارنة مع الدين ، فبقاء الأسلوب الديني قاصراً عن إيضاح كيفية تطور علم المعنى وفهم الحقيقة ، قد أبرز الحاجة إلى الفلسفة ، هذا وتعتبر الحكمة بداية الفلسفة باعتبارها معمّرة بقدر الدين ، ويعد الحكيم الذي يمثل الإنسان المفكر ، منبع معانٍ مختلفة عن اللاهوتية ، إذ يُلجأ إلى آرائه بقدر اللجوء إلى الناطقين باسم الرب ، ولا يمكن اعتبار الحكماء مسالمين للدولة والمدنيّة ، بل إنهم مرتبطون أكثر بالمجتمع الكامن خارج نطاق المجتمع الرسمي ، ودورهم بارز في تطور الأخلاق والعلم ، وإن الإلهات – الأمهات والشرائح الهرمية التي لم تصبها الرعونة والبلادة بعد في المجتمع النيوليتي ، أقرب إلى الحكمة ، حتى و لو لم تنعكس حقيقتها على الوثائق المدونة ، كما أن الانطلاقات البنيوية مشحونة بالحكمة ، ولا جدال في وجود الفلسفة قبل الثقافة اليونانية ، ويكمن حسن طالع الفلاسفة الإغريق في معايشتهم انتقال المدنيّة إلى مستوى أرقى ، وفي الميزات الجغرافية المذهلة لأراضيهم في آنٍ معاً ، فكيفما سيّر الكهنة السومريون تأسيس الدين الجديد والإله الجديد ، وتشييد الدولة الجديدة والمجتمع الجديد معاً ، فقد لعب الفلاسفة الإغريق أيضاً دورهم في بناء وتأمين ديمومة مجتمع المدنية الجديد على مستوى أرقى ؛ بحيث تتداخل فيه الفلسفة مع الدين بالتناصف ، والعمل الحاصل هو نفسه ، استخدام فن المصطلحات ، فبينما يؤدي الأول دوره من خلال تأسيس الدين ، فإن الثاني يؤدي الدور عينه عبر المصطلحات الفلسفية ، وهكذا ستبدأ الآلهة المقنعة بالتنحي عن أماكنها للآلهة غير المقنعة ، والملوك العراة ، ولهذا علاقتهم بالمسافات التي قطعها فكر الإنسان عن طريق الفلسفة .

و سيشهد الفكر الفلسفي الذي لعب دوراً محدوداً في المجتمعين الإغريقي والروماني ، ثورة عظمى في مجتمع أوروبا الرأسمالي ، وهنا سنعيش حدثاً في مجال الفلسفة أيضاً ، شبيهاً بالفوضى التي عمّت الأديان ، فإبراز المصالح الوطنية والطبقية إلى المقدمة بحكم طبيعة النظام القائم في الطور الجديد للمدنيّة ، له دوره الكبير في ظهور هذه الفوضى ، حيث وقع مزيد من العبء على عاتق الفلسفة ، فالفلسفة التي أدت دورها في تحمل المسؤولية ضمن المجتمعين اليوناني والروماني ، قد غدت الشكل الأيديولوجي الرئيسي في مجتمع المدنية الجديد ، هكذا تُنشأ المدارس الفلسفية الكبرى ، وتقطع رؤوس الملوك المتسترين ، بينما يتم الإعلان أن (الإله مات)، ويبدأ عصر الدول الرأسمالية ، التي في حقيقتها دول قومية مؤّلهة وملوك عراة .

14-دور الفن في مجتمع المدنيّة :

مهدت الثورة النيوليتية لاندلاع الثورة في ميدان الفن أيضاً ، فالحقبة التي أعقبت الرسوم البسيطة على جدران المغارات عامرة بعددٍ جمّ من أشكال ورسوم الإلهة –الأم ، والتي تعتبر موضوع الفن الأول ، وبداية فن النحت ، ومع مجتمع المدنية تُخطّ أشكال الإله والإداري الحاكم معاً بالتداخل ، أما التمايز الطبقي المتزايد ، ومهام الإدارة المتزايدة ، فتمهّد لتدوّل الفن ، بقدر تدوّل الدين ، ويخص بالذكر تسابق الإله والملك والكاهن فيما بينهم لاستعراض قواهم ، في الفنون المصرية والصينية والهندية ، وكأن هذه الهياكل الضخمة والمحفورات الباهرة ، دليل على التعريف بمقدور تلك القوى ، ويحذو الفن المعماري أيضاً نفس الحذو ، حيث تعتبر المعابد وبيوت الحكام ساحات لتنفيذ العمار ، فتشيد فيها المعابد والسرايا الفخمة ، كما تنشأ القبور الضخمة ، وكل ذلك دليل صارخ ومروع على الأبعاد التي قد يبلغها العنف والاستغلال المطبّقين على الإنسان في ظل مجتمع المدنيّة ، إذ استُهلك مئات الآلاف من البشر في سبيل تشييد هرم أو معبد، ومع توطد التجارة ، يصبح التجار أيضاً عاملاً مهماً يطبع الفن بطابعه ، ومع حلول عصر المدنيّة الإغريقية والرومانية ، نشهد ثورة في معمار المدن ، فالمدن التي كانت عبارة عن قلاع داخلية وخارجية ، تمر بتحولات بنيوية لا تفتأ تثير الدهشة والإعجاب حتى في راهننا ، وثمن الكدح الكامن وراء ذلك ، هو استعباد المجتمع بأبعاد مروعة ، فكدح الرقيق يُستهلك في إعمار

المدن بنسبة قصوى ، ومؤشر العبودية ، هو تلك القبور والمعابد والقلاع والمدائن الضخمة ، كما أن هذه المؤشرات دليل فاضح في نفس الوقت على كيفية تشييد مجتمع المدنيّة ، مجبولاً بالعرق والدم ، كما يمثل المجتمع الإغريقي والروماني طوراً جديداً من المدنيّة في ميدان النحت أيضاً، إذ يراد تخليد العظمة والفخامة والجمال في تلك الهياكل .

إن الثقافة والفن الإغريقي والروماني ، اللذين بُثّت فيهما الحياة مع النهضة يشكلان قوة الإلهام في الحضارة الأوروبية ، فأوروبا الإقطاعية التي حكمها الدين ، لم يكن لها أن تفتح نوافذها للذهنية الجدية ، إلا مع ثقافة النهضة هذه المنفتحة نسبياً على الفكر الحر ، ولم يكن للفن أن يحظى بتأثير كميّ ، إلا عن طريق البرجوازية كطبقة حضرية حديثة العهد ، في حين أنه سيفقد بهاءه القديم من غير رجعة ، فالفن بكافة فروعه من عمار وموسيقا ورسم ونحت ، سيصاب سريعاً بالرعونة والتشرذم في خدمة الرأسمالية ، وسيفقد قدسيته ، وسيخسر هويته باسم صناعة الفن ، ليصير سلعة استهلاكية تعلن إفلاسها الذريع بأحد المعاني .

ويمكن إرجاع المنبع الأصل للآداب والموسيقا إلى عهد تمأسس الثورة النيوليتية ، في حين طرأ عليها التطوير شكلاً ومضموناً في المجتمع السومري ،فملحمة جلجامش والتي هي أول وثيقة مدونة في التاريخ ، وربما المصدر الأم للآداب والكتب المقدسة أيضاً ، وإلى جانب العديد من الوثائق السومرية الأدبية والدينية لا تشكل فقط منبع الإلهام للشروح الأدبية ، واللاهوتية الإغريقية ، بل إن الملاحم الإغريقية عموماً ، وكافة تصوراتها وحبكاتها الميثولوجية خصوصاً ، تعتبر نسخةً معدلة من الملاحم السومرية ، بعد مرورها ببلاد الأناضول وإطراء التحول عليها ، فهذه الثقافة الأدبية والموسيقية الشاهدة على تحول ملحوظ هنا ، تمر بمرحلة أخيرة من التحديث مع ظهور الرواية في المجتمع البرجوازي الأوروبي ، فتتحول إلى ثقافة رخيصة وإلى صناعة الثقافة ، لتفقد قدسيتها وجمالها ، ولتغدو وجهاً لوجه أمام الاستهلاك كسلعة بسيطة ، مثلما حل بالفنون الأخرى .

15- دور الأخلاق في مجتمع المدنية :

يرتبط الفصل بين الفضيلة -الرذيلة في الأخلاق ، بالانقسام الاجتماعي الأساسي الحاصل في المجتمع المدنيّة ، فهو يوضح بأحد جوانبه أسباب الهوة الفاصلة بين مختلف مجموعات المصالح ، أما على النطاق العام فهو يعبر عن التمييز بين المجتمع الفاضل والمجتمع الرذيل ، أي أن جوهره مجتمعي ، فبينما يدل الارتباط بالمجتمع عن الأخلاق الفاضلة ، فإن البُعد عنه ، والتعارض مع قيمه ، يُشير إلى الرذيلة ، فبهذا ، فالبناء الاجتماعيّ ذو طابع أخلاقي منذ البداية ، أي ، يتمّ إضفاء هالة من القدسيّة على القواعد التي ترتّب شؤون المجتمع ،ويجري الامتثال لها طوعاً ، فالدستور الأول للمجتمع هو قواعد الأخلاق ، فالأخلاق موجودة في جوهر المجتمع ، والمجتمع المفتقد لأسسه الأخلاقية لا خلاص له من التشتت ، أما الضوابط الاجتماعيّة ، فتعني في مضمونها الالتزام بهوية المجتمع ، ووجوده الإلهي ولغته ، وتعني التماسك مع أعضائه الآخرين كالبنيان المرصوص ، بل ووضع الموت نصب العين لأجلهم إذا استدعى الأمر ،أما الطرد من المجتمع ،فيعادل الموت بعينه.

16- دور الاقتصاد في مجتمع المدنيّة :

كلمة (اقتصاد) هي يونانية الأصل ، وتعني (قانون العائلة) ، أي أنها تعني قواعد تأمين العائلة لرزقها ومعيشتها المادية ، وضوابطها مع الجوار ، وأدوات ذلك ووثائقه الأخرى ، فإذا عُممّ هذا المصطلح ، فسيغدو بعيداً عن قواعد المعيشة للمجموعات الصغيرة ضمن مجتمع المدنيّة ، وهو الواقع الاجتماعي الأقل تدوّلاً وخصخصةً ،ويشكل النسيج الأساس لجماعية المجتمع ، إذ من المحال التفكير بخصخصته أو تدويله ، والذي يعني تماماً تدمير النسيج الاجتماعي الأساسي ، وحرمان المجتمع من أهم ضوابطه الحيوية والمهمة في الحياة ، لهذا السبب لم يجرؤ أو يفكر أي مجتمع بجعل الخصخصة والتدوّيل في الميدان الاقتصادي خاصية أولية ، بالقدر الذي قامت به الرأسمالية ، ولا ريب أنه وكيفما جرى تدويل جميع الميادين الاجتماعية في مجتمع المدنيّة ، فقد حُوّل الاقتصاد أيضاً إلى موضوع للملكية الخاصة ولملكية الدولة في آنٍ معاً ، لأنه يعد نسيجه الرئيسي ، لكن ما من مجتمع أعلن صراحة ورسمياً عن الملكية الخاصة وملكية الدولة ، كنظام قائم بالدرجة التي فعلتها الرأسمالية .

وأما التسليع فقد تطور كظاهرة مهمة للغاية في مجتمع المدنيّة ، أي ، ثمة أواصر قوية بين التسليع ومجتمع المدنيّة (ذي الملكية الخاصة ، الطبقي ، الدولتي)،حيث تأتي البضاعة والتسليع في صدارة الفئات البارزة في المجتمع والتحضير ، وتعرف السلعة على أنها اكتساب أية صفة قيمة المقايضة (قيمة تبادل البضائع ، القيمة التجارية)خارج نطاق كونها مادة استهلاكية تلبي احتياجات الإنسان (تغطية فائدة ما ، أو تلبية حاجة ما)، فهذا يعني بأنها قد تبضعت ، وأما المجتمع فقد بقي غريباً عن قيمة المقايضة مدة طويلة من الزمن ، بل و اعتبر مجرد التفكير في ذلك عيباً مُشيناً ، ويقوم بتقديم ما يعتبره مادة ثمينة كهدية للمجموعات أو الأفراد العزيزين عليه ، أما بروز المقايضة بدلاً من العطايا والهدايا ، فهو بُدعة أوحيلة من حيل المدنيّة بكل معنى الكلمة ، فالمقايضة في المجتمعات التي تسبق المدنيّة ، أو الباقية خارج دائرتها أمرٌ مشُين ، بل ويجب تجنبها قدر المستطاع ، إلا في حال الضرورة القصوى ، حيث يدرك المجتمع بتجاربه العميقة أن أي إخراج لأية مادة استخدامية خارج إطار المؤسسة الاقتصادية (التي هي نسيجه الأولي) ، أو جعلها موضوع مقايضة ، قد يجلب له كافة ضروب الويلات والكوارث ، لذلك، فهو حساس جداً تجاه مسألة المقايضة .

وبتصيير السلعة قيمة مقايضة ، غدت التجارة والتجار فئة مهمة جداً للتحضر والمدنيّة ، ولكن التجارة بقيت المهنة الأكثر ازدراءً حتى في الثقافة الإغريقية ، لأن الإغريق كانوا منتبهين للروابط القائمة بين التجارة واللصوصية ، و لم يكن التاجر في المجتمع الروماني أيضاً يتميز بمكانة مشرفة ، أما التبضع ، فكان يسري على مواد محدودة جداً ، إذ كانوا

يتوخون الحرص الفائق في الإبقاء على مستوى التسليع ضمن حدود ضيقة داخل المجتمع ، وحتى لو وُجد الوسط المناسب في بعض الأصقاع قبل سيادة الرأسمالية كنظام ، فلم يكن التسليع يعطى فرصة للتطور والرواج حتى في مجتمعات المدنيّة، حيث تبقيه على الهامش باستمرار،وأما عثوره على الأرضية الملائمة لانتعاشه ورواج نفوذه خلال القرن السادس عشر في هولندا وإنكلترا الحاليتين ، فيعزى لأسباب وظروف خاصة استثنائية ، وربما كانت هناك حاجة ملحة للنظام الرأسمالي ، كي تصبح هولندا

وإنكلترا على ما هما عليه بكل معنى الكلمة ، فالعالم بأسره تعرض لانتشار هذا النظام فيه خلال أربعة قرون فقط.

وبناءً على ما سبق ، فيُعتبر تاريخ التفسير الاقتصادي من أكثر المواضيع قابلية للتحريف والتشويش والتعقيد في مجتمع المدنيّة ، ومن حِكم المدنيّة الرأسمالية أن تجعل من الاقتصاد موضوع بحث نظري وعملي ، فهي تبحث في مادية الواقع الاجتماعي ، أما المدنيّة الرأسمالية التي تضفي السمات التاريخية على ذاتها ، باعتبار نفسها مدنيّة مادية ،ويمكن تسمية نظامها بالنظام الاقتصادي .

17- قضايا انتشار مجتمع المدنيّة :

تنحاز نتائج المداولات العلمية المعنية بدراسة مهد نواة المدنيّة المهيمنة على عالمنا الحالي ، ومكان و زمان نضوجها وازدهارها ، إلى الإجماع فيما يخص الحوضين العلوي والسفلي لما بين نهري دجلة والفرات ،والتي تشير إلى أن موطن نشوء نواة المدنية هو حواف سلسلة الجبال المحيطة بالحوض العلوي لما بين النهرين ، حيث عُبّدت أرضية مجتمع المدنية مع تكوين النواة ، وتطعيم أول شتلة منها على يد الكهنة السومريين .

وللتعرف على قضايا انتشار مجتمع المدنية ، لا بد من التعرف بعمق على قضايا توسع المدنيّات ذوات الأصول المختلفة والمتباينة ، بدءاً من الأصول السومرية والمصرية ، ومروراً بثقافة الصين والهند والهنود الحمر ، وانتهاءً بالأصول الإغريقية-الرومانية .

1- قضايا توسع المدنيّات ذات الأصول السومرية والمصرية :

أ- المدنيّات ذات الأصول السومرية :

1- حضارة مدينة أوروك : أسست أوروك نظام المستوطنات ، وقدمت نموذجاً من أجل المدن التي ازداد تعدادها طردياً ، حيث استمرت على شكل ثلاث سلالات ، واتسمت بنظام كولونيالي واسع ، تضمّنته أُولى الوثائق القانونية المدوّنة ، والملاحم الأدبية ، والأكاديميات ، ونزاعات المدن الضارية ، واعتمدت على الكتابة المسمارية ، ولعبت دورها العظيم لتنال فيما بعد شرف أولى مدنيات التاريخ ، وما عبادة الإلهة إينانا ، وملحمة كلكامش سوى براهين على خلودها ، ومن المحتمل أنها انهارت

في أعوام (3000ق.م) ، حصيلة المنافسة الموحّدة للمدن الأكثر عطاءً وتعداداً في شمالها .

2- حضارة بابل : بابل هي المدينة التي كانت قبلة العديد من الفلاسفة الإغريق لتلقّي دروسهم الأولى فيها ، وتعد حضارة بابل حضارة سومرية من حيث الجوهر ، حتى وإن اعتُبرت ضمن الأثنية الأكادية ذات الأصول الثقافية السامية ، والتي تعتبر قمة العلم والمؤسساتية ، فقد لعبت مدينة بابل دوراً مشابهاً لما أدّته باريس في أوروبا ، فهي مدينة العلم والثقافة، بالإضافة إلى ازدياد عدد تجارها ، وانسكاب كل الثقافات في مصبها ، كما تحققت فيها الكوسموبوليتية (مصطلح يوناني يعني السياسة والأرض، ويشير إلى اللاقومية) لأول مرة ، بحيث أثرت في محيطها بقوة ، وابتدأتْ عصرَ النماردة في التاريخ (أوائل الملوك الاشداء) ، لتتسم بكونها مركز جذب يستقطب الجوار كمنبر مشع ، وقد مرت بثلاثة أطوار مهمة :

1)- طور الانطلاقة الزاهية ، والذي يعرف بعهد حمورابي الشهير .

2)- طور فقدانها لاستقلالها بسبب سيادة تأثير الأقوام الهورية .

3)- طور خضوعها للنفوذ الآشورية ، واحتلال الميديين – البرسيين .

فقد امتد تاريخ العهد البابلي على طول ألف وخمسمئة عام ، تاركاً بصماته القوية في ذاكرة البشرية ، وإن كان بشكل مستتر .

3- الحضارة الآشورية : يمكن تقسيم العصر الآشوري إلى ثلاثة أطوار :

1)- عصر الملوك التجار :حيث تمركز التجار في مدينة نينوى ، المتنامية بطابع تجاري والذي أدى إلى إنشائهم أولى وأوسع المستوطنات التجارية في التاريخ .

2)- مرحلة نفوذ الدولة الميتانية ذات الأصول الهورية .

3)- مرحلة تأسيس أول إمبراطورية متراصة البنيان في التاريخ ، وهي المرحلة الأبهى والأوسع نطاقاً في عهدها ،حيث تركت هذه المرحلة بصماتها وذكرياتها في التاريخ ، كونها شهدت أول تطهير عرقي ، وأول إفراغ كلي للمناطق ، فضلاً عن أنها شهدت تطور وعي المقاومة لدى الشعوب بالأرجح ، فأعظم مقاومة تجاه الآشوريين قد أبداها الهوريون ،

حيث كان لهذه المقاومة الضروس ، النصيب الأوفر في بقائهم على أراضيهم الحالية .

وقد دُكّت دعائم هذه الإمبراطورية العملاقة ، نتيجة تحالف الميديين ذوي الأصول الهورية مع البابليين ، وباعتبارها آخر حضارة من جذور سومرية ، فقد امتازت بمساهماتها العظمى في تطور وتوسع المدنيّة في التاريخ ، ولاسيما في المجالين التجاري والمعماري .

4)- الحضارة الهورية : يعتبر الهوريون الذين ينتمون إلى اللغة والثقافة الآرية ،من أولى الشعوب ، أو المجموعات الأثنية ذات الهوية الواضحة ، والتي ورد ذكرها في المراجع المدوّنة ، وهم يشكلون مجموعة أصلية عريقة استقرت في جبال زاغروس-طوروس منذ العصر الجليدي الأخير ، وقد أدوا دوراً رئيسياً في تطور الزراعة وتدجين الحيوانات ، أو بالأحرى ، إنهم يتصدرون المجموعات المطوّرة للثورة الزراعية والقروية النيوليتية في المنطقة ، وقد تميزت هوياتهم الأثنية ، وتبينت معالمها منذ أعوام (6000ق.م) ، ومن هنا، فأنسب تعريف للهوريين هو نعتهم ب(الكرد الأوائل) .

5)- الحضارة الميتانية : اتسع نطاق الحزام الثاني من الموجة الحضارية ذات الجذور الهورية ، وانتقل إلى أشكال حكم سياسية شبيهة بالإمبراطورية ، والمثال الأكثر لفتاً للأنظار في هذا المضمار ، هو الميتانيون المنحدرون من ميزوبوتاميا الوسطى بصورة خاصة ، حيث أسسوا إمبراطورية حكمت البلاد نحو (350 عاماً)، في الفترة التي شهدت فيها الإمبراطورية الآشورية أوج ازدهارها ، وكانت عاصمتها مدينة سري كانيه و عامودا التابعتين لولاية ماردين ، والكائنتين اليوم على الأراضي السورية الحدودية ، هذا وكانت العاصمة حينذاك تسمى (خوشكاني) والتي تعني (النبع الطيب ، أو الماء الزلال) .

والميتانيون كانوا يتحدثون بلغة ترجع بأصولها إلى اللغة الهورية ، وقد بسطوا نفوذهم على الآشوريين بشكل متواصل ، وإنهم كانوا من أقارب الحثيين ، أو ينحدرون من الجذر عينه ، ومن الآثار التي تركها الميتانيون على صفحات التاريخ هي مهنة (كيكولي) أي تسييس الخيول ، وشهرتهم

ببعض الأشكال المعمارية الخاصة ، كما تميزوا بكونهم ثاني أهم مدنيّة هورية .

5)- الحضارة الحثية : الحثيون ليسوا - كما يقال – من المجموعات الآتية من المضائق أو من الشرق عبر إيران ،بل إنهم مجموعة حاكمة من نبلاء الهوريين المجاورين لهم ، كما أن آلهتم وأدبياتهم وعلاقاتهم الدبلوماسية وبقايا قصورهم في مصر تشير إلى أنهم أسسوا كيان أول دولة ، ومركزها بلاد الأناضول الداخلية ، وهم شبيهون بالميتانيين ، فكيفما بسط الميتانيون نفوذهم على مراكز الآشوريين ، فإن الحثيين أيضاً ألحقوا بهم الضربة القاضية بالمستوطنات الآشورية في المراحل عينها ، ليؤسسوا الإمبراطورية الحثية التي لا تمت بصلة القرابة مع الميتانيين أو تقارباً في اللغة معهم فحسب ، بل إن أنماط حياتهم متشابهة إلى أبعد الحدود.

والحثيون قد حققوا إنجازات عظيمة ، حيث خلّفوا أماكن مقدسة تتعدّى في ماهيتها الزقورات السومرية ، كما أن معابدهم وقصور حكامهم وأماكن العاملين والمستودعات كانت منفصلة عن بعضها بعضاً ، وكانوا يمتلكون الأسوار الممتدة على مساحات واسعة ، علاوةً على تشييدهم العديد من المدن المتشابهة ، وإلى جانب كل ما سبق فقد تميزوا بكونهم الدولة الأعتى والأقوى عسكرياً في عهدها ،ذات علاقات وثيقة مع الجيران .

6)- حضارت أورارتو: تعتبر حضارة أورارتو من حضارات الجيل الأول ، ويُجمع على احتمال بدء توجه الأوراريتين نحو أول نظام ملكي مركزي في أعوام (870ق.م) ، بعد سياق طويل من الكونفدراليات المكوّنة بالاشتراك مع النائيريين ،الذين كانوا على صراع دائم مع الآشوريين (والشعب النائيري يعني شعب الأنهار ، وربما المقصود بهم الكرد الأصليون المتواجدون في المناطق بين نهر دجلة وروافده) .

وقد شاد الأورارتيون عدداً جماً من القلاع في مركز إمبراطوريتهم ، وهي مدينة وان ، التي أطلقوا عليها اسم توشبا (وهو اسم مشتق من أسماء أحد الآلهة الكبرى ، وهو إله الشمس تشوب،وهو إله العاصفة و الشمس)، وقد أحكموا قبضتهم في بسط النفوذ المركزي الوطيد بدءاً من حواف جبال زاغروس على الحدود الإيرانية في الشرق ، إلى شواطئ نهر الفرات في الغرب ، ومن وديان آراس في الشمال ، إلى مناطق الآشوريين في

الجنوب ، ويعتقد أنهم أول قوة أسست نظام المقاطعات ، وأما أنظمتهم العقائدية فكان يطغى عليها اللونان السومري والآشوري ، كما استخدموا الكتابة المسمارية ، وإلى جانب اللغة الآشورية التي انتهلوها من الحكام الآشوريين ، فبأغلب الظن أنهم استخدموا لغة ما تزال عصية على التفكيك.

ويعد الأورارتيون أقوى حضارة شهدها العصر الحديدي ، فعدد

كبير من المصنوعات والمراجل والصحون والأسلحة المصنوعة من خليط الحديد والنحاس قد وصل منهم إلى يومنا الراهن ، فهي الحضارة الأولى التي تستخدم الحديد بهذه الكثرة ، ومن جانب آخر فقد حُددت فيها مراكز العاصمة والمقاطعات ، وتطور فيها مفهوم المدينة ، أما طرق المواصلات التي أنجزوها ، فكأنها تنبّئ سلفاً بطريق الملك ، علاوةً على أن قبور الملوك المنحوتة في قلب الصخور العاتية مهيبة ومذهلة ، وكانوا يجمعون الأرقاء والعبيد من شعوب الجوار ليستخدموهم في إنشاء المدن وتشييد القلاع كما تميزوا بتقدمهم الملحوظ في الرقي بأنظمة قنوات الري ، وصنع البرك ، وهم القوة الوحيدة التي صمدت في وجه هجمات الآشوريين ، فبعد صدامات محتدمة دامت ثلاثة قرون ، انهارت كلتا القوتين في الوقت نفسه على يد قوة ثالثة ، ومن حينها لم يشهد التاريخ كياناً سياسياً مشابهاً في هذه الأراضي .

7)- الحضارة الميدية –البرسية : أعد الميديون الانطلاقةَ الأخيرة البهية للجيل الأول ، وتسمية (ماد) تنحدر على الأغلب من الثقافة اليونانية ، ويُجمِع المؤرخون على أنهم يشكلون فرعاً متقدماً شديد البأس من الآريين ، وتمثل الإمبراطورية الميدية – البرسية آخر إمبراطوريات الجيل الأول المتسعة ، وبالفعل كان الميديون في المرتبة الثانية ، وشكلوا على الدوام القوة الأساسية في الجيش ، وقد بلغوا أوج الحضارة ، وحققوا الحدود القصوى التي يمكن وصولها في الثقافة الحضارية للجيل الأول ، ولدى الإمعان في عظمة مركزهم ، وفي منعة مراكز مقاطعاتهم ، فبالإمكان تشبيههم بإمبراطورية روما التمهيدية ، فالحضارة الإغريقية – الرومانية تُعتبر أقوى عامل هيّأ العالم ، وهي مشهورة بنظامها السياسي وبنظام البريد ، وطرق المواصلات الضخمة ، كما ذاع فيها صيت وحدات الحرس الخاصة ، ولواء الفدائيين ، وتم بلوغ جيش قوامه مئات

الآلاف من الجنود ، وإنجاز تطور ملحوظ في مجال العمار ، والتميز بالاختلاف في العقائد والطقوس والشعائر الدينية ، إلى جانب الفصل بين دين النبلاء ، ودين الشعب ، كما حققت هذه الحضارة نقلة من التقاليد القبليّة إلى التقاليد الأرستقراطية المتقدّمة للغاية ، وأضافت تطورات ملحوظة فاقت مجموع الحضارات التي سبقتها ، بحيث نالت شرف الأولوية في فنّ جمع عدد لا حصر له من العشائر والقبائل والأديان والمذاهب واللغات والثقافات ، وتوحيدها في بوتقة واحدة ، إنها آخر حضارة للشرق في العصور الأولى ، وهي حضارة خلابة تبهر الأبصار ، وتتميز بتفوقها الذي لا يمكن مقارنته بتاتاً بالحضارة اليونانية الكلاسيكية الصاعدة حديثاً ، والإسكندر المكدوني هو في الحقيقة ذاك البربري الغازي ، ذو القوة الصاعدة في منطقة الجوار ، والذي يتلوى تحت وطأة عقدة النقص إزاء عراقة ثقافة الشرق ، وما تعنيه الإمبراطورية البرسية للمقدونيين واليونانيين العاطلين عن العمل ، ولرؤساء القبائل والممالك الصغيرة ، مشابه تماما لما تعنيه الإمبراطورية الرومانية بالنسبة إلى القوط (وهم قبائل جرمانية شرقية أثرت بقوة في تاريخ أوروبا السياسي والثقافي) .

فالإمبراطورية الميدية – البرسية ، وبكل تأكيد ليست أقل شأناً من روما من حيث العظمة والغنى والبهاء .

ب- الحضارة المصرية :

قامت الحضارة المصرية على ضفاف نهر النيل في المشرق ، أما منبع ولادتها ، فهو الثورة النيوليتية القائمة على حواف جبال طوروس – زاغروس ، مع أخذ حقيقة الهكسوس والعبريين بعين الاعتبار .

1)- مراحل تأسيس المدنيّة المصرية :

يمكن تقسيم المدنيّة المصرية إلى عدة مراحل :

1- مرحلة الملكية القديمة : والتي شهدت بروز عدد جمّ من الأسر الحاكمة ، و قد تنامت في أقرب المناطق إلى الأراضي الرسوبية ، وهي مشهورة بقبور الأهرام .

2- مرحلة الملكية الوسطى : حيث برزت المعابد في هذه المرحلة إلى المقدمة ، وغلب شأن الكهنة في الحكم ، واستولى الهكسوس الذي امتاز بقوة الثقافة والتنظيم ، على مصر ، حيث استطاع أن يدكّ دعائم النظام الفرعوني الذي عجزت عن هدمه الأقوام الأخرى ، وبقي الهكسوس حاكماً لمصر قرابة القرن ونصف القرن .

3- مرحلة الملكية الجديدة : وهذه المرحلة تتزامن مع مرحلة تطور التجارة ، تماماً مثلما لدى الآشوريين ، وقد تطورت مرحلة الملكية الجديدة هذه في أقاصي جنوب النيل في (الكرنك)، تماماً مثلما ظهر الآشوريون في أقاصي شمال ميزوبوتاميا السفلى ، وانتقلوا إلى مرحلة جديدة من بناء القبور في هذه المرحلة إلى جانب تدني منزلة الكهنة إلى المرتبة الثانية ، رغم كونهم كانوا لا يزالون أشداء .

2)-أهم منجزات الحضارة المصرية :

لقد أثرت الحضارة المصرية بالحضارة السومرية وتأثرت بها ، كما أثرت في الحضارة المينوسية (هي من أقدم حضارات اليونان وأوروبا)، فمصر لها نقلاتها الأصيلة الصافية في صنع الزوارق ، ونصب العواميد والمِسلّات الصخرية (المِسلّة برج وعمود حجري نحيف عمودي ذو أربعة جوانب ، وينتهي رأسه بهرم صغير)، ورسم النقوش على الجدران ، وتطوير فن التقويم السنوي ، والطب وعلم التنجيم ، تحنيط المومياء ، كما عقد المصريون علاقات على مستويات متقدمة مع الفينيقيين .

3)- نهاية المرحلة الأولى من المدنية المصرية ، وأثرها في التاريخ :

كان المصريون على نزاع وصدام مع الميتانيين والحثيين عبر أراضي سورية وفلسطين الحالية ، وبعد أعوام (1000 ق.م) تعرضت مصر جنوباً للهجمات المتواصلة على يد الأقوام ذات الأصول السودانية الحبشية ، ومن ثم خضعت لتبعية قوة خارجية مع هجوم الآشوريين ، تلاهم بعد ذلك البرسيون ، حيث أخضعوها لحكمهم ، ثم خضعت لحكم الأسكندر ، ومع انهزام كليوباترا (كانت من آخر حكام البطالمة في مصر) ذات الأصول الهيلينية تجاه الغزو الروماني ، ومع بداية الأعوام الميلادية تنتهي المرحلة الأولى من هذه المدنيّة المعمّرة أربعة آلاف عام .

لقد تركت هذه المدنيّة بصماتها على صفحات التاريخ ، بقدر السومريين باقل تقدير ، فقد شهدت النظام العبودي الكلاسيكي بأكثر أحواله نقاوة ، إذ لم تشهد أية مدنيّة التلاحمَ بين العبد والسيد ، بالدرجة التي كانت عليه في المدنيّة المصرية ، فالأديان المصاغة لأجل العبيد الذين لم يذوقوا طعم الراحة في هذه الدنيا ، والواعدة إياهم بالخلاص في الدنيا الآخرة ، شكلت أداةً شرعية وطيدةً في إطالة عمر النظام العبودية ، إنها ساحة المدنيّة المنيعة التي ابتُدعت فيها فكرة الجنة والنار والدنيا الآخرة برسوخ ، أما زواج الإخوة بين الفراعنة ، فقد يرجع إلى تقاليد الكلان القديمة ، ومن حاجتهم إلى عدم الإخلال ببنية السلالة ، وأكبر الظن أنهم أثروا في الأديان الإبراهيمية بقدر تأثيرهم في العقائد الدينية السومرية – البابلية .

ج-القبيلة العبريّة :

وفدت القبيلة العبريّة إلى مصر في مرحلة الملكية الجديدة ، أي بعد مجيء الهكسوس إلى مصر ، ومكثت فيها ثلاثة قرون .

والعبريون يتسمون ، حتى يومنا هذا ، بميزة التشبيك الجامع بين اللغتين والثقافتين الآرية والسامية ، وكذلك بين الحضارات ذات المنشأ السومري ، وتلك التي ذات المنشأ المصري ، ويعتقد بأن العبريين توجهوا من مدن سروج وأورفا وحران ، إلى مصر مع مواشيهم ، حيث كانوا أقرب إلى قبيلة مهتمة بالتجارة ، أما عقائدهم الدينية فتتأرجح بين يهوه وأل – الله ، كما أنهم كانوا يقاومون الانصهار في بوتقة مجتمع المدنيّة ، ولعقيدتهم الإلهية الخاصة بهم روابطها الوثيقة مع تلك المقاومة ،إذ يتميزون عن غيرهم بكونهم القومَ الأكثر تطويراً لمفهوم ألوهية القبيلة ، أما صراعات العبريين المبتدئة مع تمرد سيدنا إبراهيم على نمرود (من ملوك بابل) ، والمستمرة مع تمرد سيدنا موسى على فرعون (من ملوك مصر)، فقد استمرت أثناء عيشهم داخل فلسطين أيضاً تجاه العديد من القبائل بآلهتها ، ليصونوا بذلك خصوصياتهم مدة طويلة من الزمن بزعامة الرهبان ، ليبدأ - بعد عصر الرهبان الأوائل - عصر الملكية القوية بجوانبها السياسية والعسكرية ، ومن ثم ، ليعتلي العرش ملوك ضعفاء بدلاً من الأشداء ، وليقيموا مملكة صغيرة تظل شاهدة على المنازعات والتناقضات بين الملوك والرهبان ، وعلى بروز الأحزاب الثنائية والثلاثية الدائرة في فلك القوى الخارجية ، في حين تُمنى الشرائح المقاومة والمتواطئة بالهزيمة في

تصديها لآشور ، وليبدأ نفيها إلى بابل ، ومن ثم التخلص من النفي بعد قيام البرسيين بإلحاق الضربة القاضية على النفوذ البابلي ، لتبدأ بعد ذلك ، مرحلة المقاومة تجاه روما ، ومن ثم السبي الأول ، والسبي الثاني ليتشتتوا في أراضي مصر والأناضول ، ثم في كافة أماكن المدنيّة على التوالي ، حيث يأتي الدور على المناطق البرسية والإغريقية والرومانية .

ثم يظهر سيدنا عيسى ، ليكمل سلسلة الأنبياء الطويلة في القبيلة العبرية والتي يختمها سيدنا محمد.

والجدير بالذكر ، بأن العبريين الذين خطوا خطوة متواضعةً على درب التجارة فيما قبل ، باتوا مع مُضي الوقت يلعبون دوراً أساسياً في ولادة الرأسمالية ، وهيمنة رأس المال المالي ، إنهم قلة قليلة ، لكنّ تأثيرهم في تاريخ المدنيّة العالمية يعادل قوة إمبراطورية .

د- دور الإسكيت في بناء المدنية :

ينحدر الإسكيت من الشمال عموماً، ومن بلاد القفقاس خصوصاً ، و كانوا قوةً من قوى الأطراف التي أدت دوراً رئيسياً في مراكز الجيل الأول من المدنيّة على وجه الخصوص ، فعندما تعرفوا على المدنيّة ، وتسلحوا بأسلحتها ، غدوا قوةً هجوميةً مذهلة ، ويُعتقد أنهم كانوا فعالين للغاية ، ورغم تأديتهم دور الجنود المرتزقة وخدم القصور بالأغلب ، إلا أنهم بقوا قاصرين عن بناء مراكز مدنيّة مهمة باسمهم ، ولم يتخلصوا من الانصهار بنسبة كبرى .

فالتدفقات الإسكيتية الوافدة من الشمال ، والتي تعود بأصولها إلى القبائل ذات الجذور القوقازية المكتسبة لهوية واضحة المعالم ، لكن هذه القبائل المنتشرة في كل الأماكن ، بدءاً من أراضي أوروبا الداخلية إلى أعماق آسيا ، ومن سهوب روسيا الجنوبية إلى ميزوبوتاميا ، لم تترك آثاراً واضحة المعالم ، بسبب اعتمادها على القوة الجسدية أكثر من الثقافة ، وقد لعبت دوراً شبيهاً بدور القبيلة العبرية في بناء وهدم العديد من الإمبراطوريات ، وقدمت خدمات جليلة كحاشيات عسكرية ، ووهبت نساءها إلى القصور ، وقامت بالدور ذاته مؤخراً ضمن الإمبراطورية العثمانية ، وهي ما تزال مستمرة عليه في عهد الجمهورية التركية أيضاً

، ومع كل ذلك بقيت عاجزة عن الحفاظ على هويتها مثلما حافظ العبريون على هويتهم .

2- التطورات في ثقافة الصين والهند والهنود الحمر :

أ- التطورات التي طرأت على ثقافة الصين :

مع انتهاء العصر الجليدي الأخير ، غدت الصين المنطقة الأهم للمجموعات النازحة من الجنوب الغربي لسيبيريا نحو أقصى الجنوب ؛ لتستقر فيها ، ولتظهر الثقافة النيوليتية وحضارات المدائن فيها ، نتيجة تميزها بالأراضي الخصيبة على شواطئ البحر ، و الأنهر الكبيرة ، والنباتات المتوفرة ، والحيونات المتنوعة ، وكانت تلك الثقافة متأثرة بالثقافة النيوليتية الآرية .

1)- مراحل تأسيس المدنيّة الصينية : مرت المدنيّة الصينية بثلاث مراحل:

1- المرحلة الأولى : وهي المرحلة التي تأسست فيها أعظم إمبراطورية مركزية ، والتي امتازت باحتوائها على العديد من المقدسات ، وكانت بمثابة (أوروك الصين) (وأوروك هي المدينة التي عاش فيها كلكامش ، وامتازت بقوة عسكرية واقتصادية).

2- المرحلة الثانية : انتشر التمدن في الصين في هذه المرحلة ، حيث تأسس عدد جم من دول المدنية ، ونشب صراع تنافسي حاد بين المدائن .

3- المرحلة الثالثة : تعززت في هذه المرحلة مكانة السلالات الحاكمة المركزية ، حيث تركت بصماتها على العهد الإقطاعي .

2)- أهم منجزات المدنية الصينية : إن الغريب في شأن الثقافة الصينية ، هو غلبة تفسير حكمائها للكون ، بدلاً من اختراع الآلهة على غرار الكهنة السومريين ، هذا وتغلب السمة العلمية على شروحهم وإصلاحاتهم بصدد الكون والطبيعة ، حيث يتصورون الكون حياً ، كما أن تعاريفهم للطاقة مفيدة ، وبشكل عام يُطلق على الروحانية الصينية اسم (الطاوية) (الطاوية هي تقليد ديني أو فلسفي ذو أصل صيني ، والتي تؤكد على العيش في

وئام مع الطاو أي المبدأ الذي هو مصدر كل شيء موجود في الحياة) ، والتي يمكن تسميتها أيضاً بالحكمة .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد قدم الصينيون إنجازات وتطورات مهمة في ميدان المدنية المادية ، إذ سبقوا الغرب بمدة طويلة في مجال الرقي بالتطور الصناعي ، إنهم مخترعو الورق والبارود والمطبعة ، ويتصدرون الميدان التجاري في أقاصي الشرق في بداية طريق الحرير التجاري ، أما تماسُّهم الكثيف مع حضارات الشرق الأوسط ، فقد حصل في القرون الأولى لما قبل الميلاد وما بعده ، لتنفتح الصين على الرأسمالية في أواسط القرن التاسع عشر ، ويتفاقم تضخمها مع راهننا .

ب- التطورات التي طرأت على ثقافة الهند :

حدث تطور نيوليتي محلي لمدة طويلة في الهند ، ويخمّن أن المجموعات القاطنة هناك عاشت حقبة الكلان البدائية قبل احتكاكها الأول مع الآريين الذين دخلوا الهند في أعوام (2000 ق.م- 1500ق.م) ؛ وبروز الثورة النيوليتية في الهند كان مرتبطاً بهذه التطورات.

1)- مراحل تأسيس المدنية الهندية : مرت المدنيّة الهندية بثلاث مراحل :

1- المرحلة الأولى : وهي المرحلة التي كان فيها الرهبان القوة التي قادت الثورة النيوليتية ، وثورة المدنيّة التي تلتها مباشرةً دون فواصل زمنية تذكر ، والكتاب المقدس الأساسي لهذه الطبقة المسماة برهبان (براهمان) هو أسفار الفيدا (و تعني كتاب المعرفة) ، والتي هي أقرب إلى أن تكون نسخة هندية معدلة من الكتاب العبري المقدس (الإنجيل) ، ولكنها أطول وأكثر تعقيداً ، وهي تروي قصص نشوء طبقة الرهبان على أرضية ألوهية مذهلة ، مع عدم إهمالها إضفاء الطابع الملحمي على هذا الحدث ، لتشكل بذلك الدعامة المنيعة لنظام الكاست (وهو نظام الطوائف الاجتماعية الوراثية عند الهندوس ، ويتميز برابطة الدم) .

2- المرحلة الثانية : ويظهر فيها أصحاب طبقة راجا (أي الملك، وهي طبقة معروفة ببسالتها العسكرية وحكمتها السياسية ، ومؤلّفة من ملوك أو أمراء أو رؤساء عشائر) كقوة سياسية وعسكرية ، يخوضون صراعات محتدمة مع البراهمانيين، ليغدوا بذلك الأصحاب الجدد للدولة ، ويزداد

تعداد المدن في هذه المرحلة ، لكثرة شواطئ البحار وضفاف المياه العذبة الصالحة للزراعة في بلاد الهند ، وقد تميزت تلك المدن بمعابدها وقصورها الضخمة ، وكانت الزراعة فيها راقية ، إذ ألف الفلاحون وأصحاب المهن الحرة طبقة كاستية ثالثة ، في حين قبع الباريائيون (المنبوذون) في الطبقة السفلى من المجتمع ، حيث كانوا يلقون معاملة أسوأ من معاملة الحيوان ، فمجرد الاحتكاك بهم كان يُعدّ حراماً وذنباً كبيراً .

3- المرحلة الثالثة : وهي المرحلة التي ظهر فيها المصلح الديني العظيم (بوذا)، والذي اشتهر بتطويره إصلاحاً دينياً ، قوامه الأخلاق ، دون الاعتماد على الآلهة ، حيث ينتبه إلى الآلام و المخاضات المتفاقمة في الطبيعة والمجتمع ، فيسعى إلى تطوير نظرية ميتافيزيقية تهدف لتلافيها.

فالبوذية تعاليم معارضة للمدنيّة ، ومتميزة بطابعها الأيكولوجي الوطيد ، وهي تحقق صعودها في الصين واليابان والهند الصينية ، وهي عبارة عن نظام إصلاحي يطبق مراقبة صارمة على النفس الباطنية ، علاوةً على وجود الإصلاح الإلهي المسمّى كريشنا (إله الرعد والعاصفة وابن إله الشمس)، وهو عبارة عن دين قوامه الحياة الجبلية والترحال ، ومفعم بقصص العشق الصميمي مع الألوية النسائية الحرة ، ومثقل بالبصمات القوية للثقافة النيوليتية ، فهو بالأحرى ، رؤية أخلاقية تضفي قيمة عليا على التطلع إلى الحياة الحرة .

2)- منجزات المدنيّة الهندية : تكتسب المدنيّة الهندية بنية مركزية بعد غزو الإسكندر والبرسيين حيث يقوم أشوكا (ملك) بإنجاز أول تمركز جذري عقب بسط نفوذه على الراجائيين المتشردين والمنفلتين من قيودهم ، إلا أنه يعجز عن الاستمرار بنجاحه لاحقاً ، فيعم فساد الراجائيين ، وتسود حياة الفوضى في أنحاء الهند ، إلى أن تغزوها الدول الإسلامية ، ثم تسترد مركزيتها بإشراف وإدارة الأباطرة المغوليين المسلمين ، منجزةً بذلك تطوراً حضارياً ملحوظاً ، و مثابرةً قُدُماً على توسع المدنيّة ، ومع عمليات التغلغل المعتمِدة على الرأسمالية ، إلى جانب الاحتلال الإنكليزي الرأسمالي لها أواسط القرن التاسع عشر ؛ شرعت بولوج مرحلة جديدة ، في حين نالت استقلالها كدولة بعد الحرب العالمية الثانية ، ورغم خسارتها باكستان وبنغلاديش ، اللتين تشكلان طرفيها في الشمال الشرقي والشمال

الغربي ، إلا أنها لا تزال تحافظ على غناها الثقافي بكل تعقيداته ، معتمِدة في ذلك على مياهها العذبة ، وشواطئ بحارها المبتدئة من حواف جبال هيمالايا ، لتشمل مساحة واسعةً تشمل شبه الجزيرة عموماً ، والهند التي تعرفت على الديمقراطية في خِضمِ أجواء متوترة مشحونة بالفوضى والكيانات المتناقضة ، ومليئة بالبنى السياسية واللغوية المتباينة والمتنوعة بدءاً من الدين إلى الفن والأخلاق ، تثير الفضول بقدر الصين كأقلّ تقدير .

ج - التطورات التي طرأت على ثقافة الهنود الحمر :

1)- مراحل انتشار الحضارة في القارة الأمريكية : انتشرت الحضارة في القارة الأمريكية على مرحلتين :

1-ً المرحلة الأولى : انتشرت في هذه المرحلة مجموعات الهنود الحمر في أمريكا الشمالية ثم الجنوبية بعد عبورها مضيق برينغ ؛ ومن ثم تعرفت على الثورة النيوليتية ، وتوجهت نحو التحضر لتشيد أولى المدنيّات في الشرق (أمريكا الجنوبية) بدءاً من المكسيك إلى تشيلي باسم آزتك (قامت في المكسيك)، ومايا (قامت في شمال غواتيمالا، وفي أجزاء من المكسيك)، وإنكا (آخر حضارة شهدتها بيرو).

لكن جذوة هذه المدنيّات انطفأت قبل أن تتمكن من تأسيس مدن أكبر أو من إكثار تعدادها ، والسبب يعود إلى الظروف المناخية والجغرافية ، والجدير بالذكر أن الرهبان تميزوا بثقل كبير في تلك الحضارات ، لدرجة يمكن تسمية تلك الحضارات ، بحضارات الرهبان ، وقد كانت حضارات بدائية رغم ظهور إشارات أقرب إلى الكتابة فيها ، امتازت بظاهرة تقديمها الشبان اليافعين كقرابين للآلهة ، ولكن إلى جانب ذلك ، فقد حققت تطوراً ملحوظاً فيما يتعلق بالتقويم السنوي ، وقد زودت الحضارة العامة باكتشاف العديد من أنواع النبات والحيوان ، أما أمريكا الشمالية ، فلم تكن قد تعرفت بعد على الحضارة وقتذاك .

2-ً المرحلة الثانية : وهي المرحلة التي انفجرت فيها المدنيّة في القارة الأمريكية ، هذه المدنيّة التي تزامن بدء انفجارها الأصلي في تلك القارة ، مع حملات الاكتشاف والاحتلال والاستيلاء خلال القرن السادس عشر الميلادي ، أما المدنيّة الرأسمالية الجديدة التي برزت كبلدان مستقلة

ظاهرياً ، وتجسدت ميدانياً في انقسام الرأسمالية إلى دول قومية خلال القرن التاسع عشر ؛ فقد واكبت نظام المدنية العالمي ، واندمجت معه تزامناً مع تشييد الولايات المتحدة الأمريكية في أمريكا الشمالية ، كما استمرت في انطلاقتها بمعية الولايات المتحدة الأمريكية التي غدت قوةً مهيمنة في النظام القائم بعد الحرب العالمية الثانية ، أما أمريكا الجنوبية ، فلا تزال تثابر بقوة في راهننا على البحث عن نموذج حضاري جديد مقابل المدنية الرأسمالية المنتمية في جذورها إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .

د- ماهية المدنية في القارة الأفريقية :

بدأ الإنسان مسيرته الأولى في القارة الأفريقية الرئيسية ، وانطلق منها بحثاً عن الكلأ والقوت ، ممسكاً بأدواته في يده ، والتي تعرف فيها على لغة الصوتيات الرمزية بعد لغة الإشارة ، ولكن ما تزال المناطق التي شهدت تشكّل الثقافة النواة في هذه القارة الأم ، تحافظ على أواصرها المتكونة مع ثقافتها العريقة الأولى المتكوّنة على مر سياق طويل مديد ، وفي الوقت الذي لم تذهب فيه الحضارة المصرية أبعد من السودان ، ولم تبلغ الحضارة المسيحية في العصور الأولى سوى طرف من تخوم بلاد الحبشة ، فإن القارة الأفريقية تصبح محاصرةً من جميع أطرافها بالمدنيّة الرأسمالية الأوروبية في القرن التاسع عشر ، بعدما كان قد تعرّف شمالها على ظاهرة الأسلمة إثر تعرضها للغزو الإسلامي على يد العرب الساميين الذين شهدوا انفجاراً عظيماً مع الحضارة الإسلامية ؛ ولكن أفريقيا التي تلاقي صعوبات كبرى في تمثل المدنيّات بحكم بنيتها الداخلية ؛ تشهد في الوقت الراهن فوضى عارمة ، وتغدو أقرب إلى خليط من الثقافات المختلفة وسياقات المدنية المختلفة.

3-المدنيّات ذات الأصول الإغريقية – الرومانية وقضايا توجهها :

1)- الحضارة اليونانية وتأثرها بحضارات أمم متعددة :

تغلغلت الثقافة واللغة الهندوأوروبية (الآرية) إلى شبه الجزيرة الإغريقية منذ أعوام (5000 ق.م) ، والتي عاشت الثورة النيوليتية ، ثم انتقلت

لتؤسس أول مدنيّة مماثلة لنموذج أوروك ، متأثرة بذلك بحضارات مختلفة ، أولها حضارة الحثيين الذين وثقوا هذه المناطق باسم آهيافا ، حيث بدأ الحثيون بالتبادل التجاري مع الإغريق عبر طروادة ، وأمدوهم بعروض وفيرة ، أيديولوجية (الآلهة ، الآداب، العلم) ، ومادية (الأشياء المعدنية ، الفخاريات ، المنتوجات النسيجية للمتاجرة بها)، وأدوا بذلك دوراً بارزاً في الانتقال بهم إلى مستوى المدنيّة ، أما الفينيقيون ، والذين كانوا يختصون بالملاحة البحرية، حيث شيدوا المدن التجارية ، فقد علموهم الأبجدية الفينيقية ، ولعبوا دوراً رائداً في تصاعد الحضارة داخل شبه الجزيرة الإغريقية .

وقد أثر المصريون في الحضارة الإغريقية (اليونانية) بشكل بارز ومباشر عن طريق الحضارة الميسونية (وهي من أقدم حضارات اليونان وأوروبا عموماً وتعود إلى العصر البرونزي) المتطورة اعتماداً على مستوطناتهم ، وشتى الاختراعات التي أنجزتها الحضارة الشرق أوسطية هي بمثابة المغذي المستمر من خلال هذه القنوات، والكثير من علماء وفلاسفة الإغريق كانوا يتجولون في أنظمة القصور والمدارس المصرية والبابلية والميدية –البرسية خلال القرنين السابع و السادس قبل الميلاد ، لينتهلوا منها دروسهم وأنظمة قواعدهم ، وينقلوها معهم إلى شبه الجزيرة الإغريقية .

2)- خصائص حضارة أثينا :

1- تتجسد الخاصية الكبرى الأولى لحضارة أثينا في تمثّلها الفلسفة أيديولوجياً من حيث كونها فكراً وشكلاً عقائدياً ، حيث أسس الفلاسفة مدارسهم على غرار اختراع الكهنة للدين وتشكيلهم الأناس التابعين للمعبد ، وبنوا ما يشبه الكنائس (المجالس) ، وتكوّن زخمٌ من المدارس الفلسفية على غرار ما في الأديان التعددية ، حيث كان يمكن النظر إلى كل مدرسة منها كدينٍ أو مذهبٍ مستقلّ بذاته .

2- الخاصية المهمة الثانية لحضارة أثينا ، فتكمن في كونها السبّاقة إلى التركيز بعنايةٍ فائقة على الديمقراطية (الجمهورية) نظرياً وعملياً ، فالديمقراطية مرحلة جدّ مهمة في عموم تاريخ الحضارة ، لكنها ديمقراطية

معنية بالشريحة الأرستقراطية فحسب ، وهي لا تشتمل بذلك حتى على عُشر المجتمع .

فالديمقراطية اصطلاحاً ، تعني اهتمام الشعب بالسياسة ، أي انشغاله بشؤون الإدارة والحكم ، وقوام السياسة الديمقراطية هو التفكير في جميع القضايا الاجتماعية الحيوية ، وتداولها ، والبت فيها ، وبالتالي فخاصية السياسة الديمقراطية والتي تعني المجتمع المنفتح أيضاً ، تقدم مساهمات ليست بالهينة في حضارة أثينا .

3)- منجزات حضارة أثينا :

يبرز مجمّع الآلهة في مدينة أثينا في هيئةٍ معمارية جديدة كلياً حيث يُبهر الأنظار بأعمدته المستطيلة الواسعة التي تحفّه، وبأسواره التي تحيط به من الخارج ، فأثينا مدينة تأسيسية (نواة) ، فقد سُمّيت بهذا الاسم نسبة للإلهة أثينا ، مؤسّستُها وحاميتها ، أما الأقسام الأخرى من المدن ، فغلب عليها الطابع المؤسساتي عبر العديد من الكيانات ، من قبيل السوق التجارية، الكنيسة (المجلس) ، المسرحية ، الأروقة (شوارع التنزه المظلّلة) ، وأماكن الرياضة البدنية، وغيرها، كما أنها شيدت مستوىً راقياً من البنى ، حيث يخلو بعضها من الأسوار ، ويحتوي بعضها الآخر عدداً ضخماً من القصور الفخمة.

هذا ، وشهدت أثينا تطور الآداب المكتوبة ، فالمسرح عاش أمجد مراحله الثورية ، وكَثُر تفعيل المآسي في النتاجات الملحمية ، وكُتبت المؤلّفات التاريخية ، كما كانت (ملحمة هوميروس) تُقرأ ككتاب مدرسي ، وصِيغت الكثير من الأحداث بلغة مسرحية بارعة كأنها تُبشّر بولادة السينما ، وتطورت الملاحة البحرية و التجارية ، لدرجة أنها غدت ثاني حضارة مهتمة بالملاحة بعد الفينيقيين ، كما برزت التجارة في مجتمع أثينا – ولو بنطاقٍ ضيق – وليس كمهنة مفضلة ، لتزرع فيها أولى بذور الرأسمالية ، حيث تبدو وكأنها ستنتقل إلى النظام الرأسمالي ، فيما لو قامت بنقلةٍ أخرى إلى حدّ ما ، هذا وتطور فن العمارة أيضاً فيها إذ تثبت بنى المدينة ذلك كفاية ، وأحرز فن النحت مستوى أقرب إلى النموذجي ، بالإضافة إلى المشاهد الأخّاذة التي تُحيي و تُمثل الأحداث الميثولوجية ببلاغة حاذقة .

كما أحرزت الموسيقا تطوراً ملحوظاً ، سواء في عدد الآلات الموسيقية ،أو في تنوعها ، واستمر النثر الشعري بحضوره ، وإن لم يكن بقدر ما كان عليه في عصر البطولات .

4)-أهمية حضارة إسبارطة :

تأتي إسبارطة (وهي من أقوى الدويلات اليونانية) في المرتبة الثانية بعد أثينا ، حيث تتميز بمواظبتها على التقاليد الملكية القديمة بصرامة ، وكانت النزاعات والحروب مستمرة بينها وبين أثينا ، كما ترك نموذج أثينا وإسبارطة بصماته على جميع أنحاء شبه الجزيرة الإغريقية ، فشهدت إسبارطة تطوراً سريعاً في توسع المدن ، وعجت شبه الجزيرة الإغريقية ، والسواحل المقابلة لها بنفس النموذج ، ثم تلتها سواحل البحر الأسود وبحر مرمرة في الانتقال إلى تأسيس المدن ، فالتعداد السكاني الزائد والتجارة قد حفّزا على بدء عصر استيطان جديد متطوّر جداً ، هذا وانطلقوا نحو مرسيليا ، ونحو حدود إسبانيا ، ليؤسسوا هناك ما يشبه غرف التجارة التي تحوّلت فيما بعد إلى مدن ، إلى جانب بروز المستوطنات في جنوب إيطاليا ، ورغم كل هذه التطورات العظيمة ، لم تبلغ مستوى قوة إمبراطورية ، كتلك التي تمتعت بها الإمبراطورية البرسية أو الرومانية .

5)- الغزو المقدوني للمدنيّة الإغريقية :

جاءت الضربة القاضية لديمقراطية أثينا ، من قبل الاتحادات المقدونية (اتحاد صفوف القبائل تحت إشراف فيليب الثاني وابنه إسكندر المقدوني) ،فإسكندر الابن الذي تلقّن دروسه من أرسطو (فيلسوف يوناني) ، والذي كان قد أعدّ ذهنه وتعبئته بالذخر الوافر من القيم الثقافية اليونانية وآلهتها ، قد طمع بثقافة أثبتت جدارتها ، فتطلّع إلى غنى الشرق الزاخر ، فتحرك برفقة الاتحادات الطوعية المسماة (كتائب فالانج) ، وغزا الأراضي التي يطؤها ، ليصل في نهاية المآل إلى سواحل نهر السند في بلاد الهند ، بعد ما كان قد غزا المدنيّة الإغريقية ، وحقق انتصارات كثيرة ، ووسع حدود إمبراطوريته ، إلا أن المنية وافته في بابل ، وهو ما يزال في ربيعه الثالث والثلاثين ، مخلفاً وراءه أراض مفتوحةً تضاهي الإمبراطورية البرسية في سعتها .

6)-أهمية الثقافة الرومانية :

يتحلّى تعريف الثقافة الرومانية بأهمية قد تعادل أهمية التعريف بثقافة أثينا على الأقل ، وذلك للأسباب التالية :

1- أهمية الثقافة الرومانية ، كونها ذروة المدنيّة العبودية .

2- الثقافة الرومانية هي الممثل الأعظم لثقافة الإمبراطورية بأبعادها وأعماقها ، حيث لم تبلغ أية إمبراطورية في التاريخ العظمة التي حققتها روما .

3- آباطرة روما هم آخر و أقوى الملوك –الآلهة المقنعين .

4- روما هي الدولة التي تنشر القانون والمواطنة ، وتعرّفهما لأوسع قطاعات المجموعات البشرية .

5- إنها الإمبراطورية السبّاقة في فتح الآفاق أمام المواطنة العالمية ، والكوسموبوليتية (أيديولوجية تقول : إن جميع البشر ينتمون إلى مجتمع واحد ، على أساس الأخلاق ، وهي تعني اللاقومية)، وبالتالي أمام الدين العالمي .

6- هي فجر المدنيّة الأوروبية ومبتدأ جسرها .

7- بقيت روما جمهورية لمدة طويلة من الزمن.

7)-الثقافات المؤثرة في الثقافة الرومانية :

1- الثقافة النيوليتية : وهي الثقافة الأولى والأقدم التي أثرت على شبه الجزيرة الإيطالية ، وأحكمت قبضتها عليها.

2- مجموعات الأتروسك : والتي تحمل الهوية الثقافية الثانية المؤثرة في الثقافة الرومانية ، وكانت شبه نيوليتية –شبه عبودية ، والتي نقلت معها اللغة والثقافة الآرية ذات المنشأ الميزوبوتامي عبر بلاد الأناضول .

3- الثقافة الإغريقية : والتي اتخذت أثينا مركزاً لها ، وكانت في مجدها ، والتي ما لبثت أن تكوّنت حتى استقرّ فرعٌ منها في جنوبي إيطاليا كأول مستوطنة هناك.

4- ثقافة شرقي البحر المتوسط ذات الجذور المصرية والسامية : والتي نقلها الفينيقيون ، مؤسسو قرطاجة (مدينة أثرية تقع قرب تونس العاصمة)، والمستوطنات الفينيقية الأخرى إلى شبه الجزيرة الإيطالية .

8)- أهمية الجمهورية الرومانية :

إنّ الجمهورية التي انتقلت إليها روما عام (508ق.م) هي بمثابة استمرار مؤسساتي لديمقراطية أثينا ، حيث عبّأت الجمهورية شعبَ مدينة روما بأقصى الدرجات وسلحته بالإرادة والعزيمة فيما يخصّ شؤونه ومصالحه ، فبنيتها المشتملة على مجلسين(مجلس للأرستقراطيين ،وآخر للمواطنين من سواد الشعب)، والقنصلية ، و تطوّر القضاء كمؤسسة منفصلة ، وتمأسس قوى حماية المدينة على غرار مماثل ، كل ذلك يشير بسطوع إلى احتراف ورسوخ الجمهورية الرومانية بما يفوق ديمقراطية أثينا الغِرّة ، هذا ويشكل حكم الجمهورية أحد المناهل الأساسية في تطوير فن السياسة ، كما أن هذا الوضع يدل على العرى الوثيقة بين القانون والسياسة ، فهو في الوقت ذاته ، مثلٌ تاريخيٌّ أصيلٌ يبسط تمأسس القانون ، وبالتالي مدى كونه أرضية للوفاق السياسي ، فالكل على علم بأن روما عاشت مجدها الثقافي داخلياً في كنف الجمهورية ، إلى جانب أنها قامت بغزواتٍ عظمى خارجياً ، فالمدنيّة الرومانية تعتبر قد وصلت تخومها الطبيعية مع عهد الجمهورية ، في حين أن قصة الانتقال من الجمهورية إلى الإمبراطورية، ليست سوى اعتراف بالصراعات المتفاقمة وبأخطارها المتعاظمة داخلياً وخارجياً .

9)-أهمية روما على الصعيدين الثقافي والمادي :

كانت حرف الإنتاج الزراعي والتعدين والمهن الحرة والتجارة الظاهرة في مناطق أعظم المدنيّات في العالم ، قد تعاظمت واتسعت آفاقها في ظل الإمبراطورية الرومانية ، ومقولة (كل الطرق تؤدي إلى روما) تحدد وجهة سيلان هذه الموارد الاقتصادية ، حيث كان العالم برمّته يغذي روما ، وبهذه المكاسب السمسارية الكبرى كانت قد أُنشئت المدن الفخمة ، وأولها روما ، كما أن العهد الهيليني صانع هذه المدن كما هي ، وطوّر أكثرها ، في حين نشهد رصف اللبنات الأولى لدنيا المدائن الجديدة في أوروبا ن أي ولادة أمثال أوروك ، وفي مقدمتها باريس ، والتي تميز

عمارها بتطابقه مع عمار المدن اليونانية ، ولكن ، مع مسحة من العظمة والاتساع ، علاوة على أن أقنية الري وسواقيها وعجلاتها كانت قد حققت تطوراً ملحوظاً آنذاك، أما شبكة الطرقات فلا نظير لها ، والأمن كان مستتباً لدرجةٍ أنه كان ثمة سلامُ روما حقاً ،كما كانت صناعة التعدين والوسائل المعمارية متطوّرة ، أما المناجم الحجرية ونحت الصخور فلا يمكن مقارنته إلا بعهد مصر القديم ، وبالإضافة إلى أن تغليف الدروع المعدنيّة والأسلحة كان من شؤون الحرف الأكثر تطوراً ، في حين كانت التجارة قد استكملت مؤسساتيتها وراجت ، فاستردت اعتبارها ، مقارنةً مع مكانتها في الثقافة اليونانية ، وتكاثر التجار المشهورون ،ليسود عهدٌ مزهرٌ في انطلاقته التجارية .

وأما بالنسبة للقانون ، فكان قد قطع كل هذه المسافة من التقدم والتمأسس لأول مرة في تاريخه ، ومؤسسة المواطنة الراسخة كانت ثمرةً طبيعية للقانون ، أما مواطنة روما ، فكانت امتيازاً عظيماً ، فكل الأوساط الأرستقراطية والتجارية في العالم ، كانت تعتبر العيش على غرار سكان روما امتيازاً بحد ذاته .

وكانت المبارزات الرياضية وحشية ، فمصارعة المجالدين، والدفع إلى مصارعة الأسود ، أو تقديم الأسرى لقمةً سائغة للأسود الجائعة ضمن الحلبة ، تقشعر لها الأبدان ، حيث كانوا يعوّدون الشعب على تسلياتٍ كهذه ، لتنحط أخلاقه ، وقد تراجعت منزلة مجمّعات الآلهة والمعابد المشيدة باسم الآلهة في المراحل الأخيرة بنسبة كبيرة ، إذ اكتفى علم اللاهوت الروماني بتغيير أسماء آلهة اليونان ليتمثلها ، وكانت الخطابة فناً مؤثراً في اللغة الرومانية بحد ذاتها كانت أسلوباً في المحادثة ، كما أُضفيت مسحةٌ خاصة وبارزةٌ على الملابس والهيئات ، رغم احتوائها تأثيرات الشرق العميقة ، وكانت اللغة اللاتينية قد حلت محل اللغة الإغريقية رويداً رويداً ، لتغدو لغة الدبلوماسية المثالية والمعيارية، ولغة رسمية بالأوساط العالمية.

وبمجرد المقارنة بين ثقافتي روما وأثينا ،سنرى أن الجانب الأيديولوجي يطغى على ثقافة أثينا ، في حين أن الجانب المادي والسياسي هو الذي يترك بصماته على ثقافة روما، فهاتان الثقافتان تشكلان كلّاً متكاملاً ، وتعدان آخر أطوار تطوّر الثقافة الشرقية .

4-مراحل مجتمع المدنيّة وقضايا المقاومة :

1)- شرح بعض المصطلحات في ظل تصاعد مجتمع المدنيّة :

1- القضايا: يدل هذا المصطلح على حالة الفوضى التي لم يعد الفرد والمجتمع فيها قادرَين على تمكين ديمومة الثقافتين الأيديولوجية والمادية .

2- الثقافة الأيديولوجية : يعبر هذا المصطلح عن ماهية الوظائف التي سُخّرت لها البنى والمؤسسات والأنسجة ، ويشرح معانيها وأحوالها الذهنية.

3- الثقافة المادية: يعبر هذا المصطلح على القسم الظاهر والملموس من الوظائف والمعاني ، مثل المظهر المرئي ، الظاهرة ، المؤسسة ، البنية ، النسيج .

2)-المشاكل التي عانتها الثقافة النيوليتية :

لم تعانِ الثقافة النيوليتية من مشاكل جدية من حيث الفصل بين بعديها الأيديولوجي والمادي ، بل لم تواجه القضايا المتفاقمة إلا بعد ولوجها مرحلة الانسداد ، وعجزها عن حماية ذاتها تجاه تصاعد مجتمع المدنيّة ، وذلك لأن الأخلاق المجتمعية لم تسمح مطلقاً بخلق أوضاع تهدد الحياة ،أو تزجّها في حالات نزاع أو شقاق في المجتمع النيوليتي، ولاسيما في مراحل البناء و التمأسس ، فالملكية الخاصة-و التي تعتبر المؤثر الأساسي الذي يفضي إلى التصدعات الاجتماعية- لم تجد فرصتها في النمو بعد ، حيث أن تقسيم العمل بين الجنسين لم يتعّرف بعد على علاقة الملكية فالعنف ، وتأمين الغذاء كان حصيلة النشاط المشترك الذي لم يشهد بعد الملكية الخاصة التي تُعتبر إلى جانب العنف من المهالك الحيوية ، نظراً لتسببهما في تدمير البنى وإفسادها ، فالبنية الداخلية للمجتمع النيوليتي كانت منيعة وملتئمة لأقصى الحدود ، وذلك لأن المجتمع النيوليتي اعتبر التشارك والمشورة الجماعية قاعدة وركناً اساسياً في الأخلاق ، وكان التناغم مع المبدأ الأيكولوجي مستمراً بكل قوة في ثقافتيه الأيديولوجية والمادية ، فالطبيعة بالنسبة إلى ذهنية المجتمع النيوليتي حافلة بالمقدسات والألوهيات ، حيث يُنظر إليها على أنها حيوية كحيوية الإنسان ، فهي

سخية بمنحها الهواء والماء والنار وشتى الأنواع النباتية والحيوانية والغذاء إلى الإنسان ، وهي تعادل الإله ، بل هي من أعظم عناصر الألوهية .

وبلا ريب ، يمكن إدراك معاني ميتافيزيقية الحياة الجماعية المتمحورة حول المرأة –الأم في المجتمع النيوليتي ، وما ينم عنها من قدسية وألوهية ، فمزايا المرأة المماثلة للطبيعة في الإنجاب والتنشئة والرأفة والرحمة ، ومكانتها الرفيعة في الحياة ، كل هذا جعلها العنصر الأساسي للثقافتين المادية والمعنوية ، وأما الرجل ، فلا وجود لظله على جماعية المجتمع ، فالمجتمع –آنذاك- كان يعني المرأة- الأم، وأطفالها وأشقاءها وشقيقاتها ،و أما الرجل المرشّح لأن يكون زوجاً ، فكان لا يلقى القبول إلا بعد أن يثبت فائدته من خلال مهارات أخرى عدا وظيفة الزوج ؛ كالصيد الموفّق ، أو كتربية الحيوان والعناية بالنبات على نحوٍ أحسن .

3)- تعرض المجتمع النيوليتي لمشاكل داخلية ، وخارجية :

كان من أهم أسباب تعرض المجتمع النيوليتي لمشاكل داخلية ، هو تغلب الرجل على نقاط ضعفه ، وتحوله إلى صياد ماهر ، ومهارته في تنشئة الحيوان وتنمية النبات ، وبلوغه مكانة منيعة مع حاشيته الملتفة حوله ، كل هذا شكل تهديداً لانهيار النظام الأمومي .

وأما المشاكل الخارجية التي تعرض لها المجتمع النيوليتي ، فيمكن إرجاعها إلى المؤثرات التي تجسدت في دولة الكاهن ومجتمعه المقدسَين ، والتي أدت إلى صهر المجتمع النيوليتي بمؤثرات خارجية ، والتي تكمن في ثقافة المجتمع النيوليتي الصاعدة ، وفي تقنيات الري في الأراضي السهلية الرسوبية ، حيث أدتا إلى ظهور فائض الإنتاج الذي تطلّبه هذا المجتمع الجديد المتمدن ، والمتمحور حول فائض الإنتاج المتعاظم ، والذي نظّم أموره على هيئة دولة ، وحقق ميزانيةً مختلفة عن طريق قوة الرجل ، فالتمدن المتزايد يعني التسليع الذي يجلب التجارة التي تتغلل في الشرايين المجتمع النيوليتي على شكل مستوطنات كولونيالية (كولونيالي : بمعنى المزارع ، والكولونيالية تعني الهيمنة والسيطرة لدولة ما على أراضي دول أخرى وشعوبها وهي حسب الترجمة العربية تعني الاستعمار)، لتنشر معها تصاعدياً التبضع والملكية وقيمة المقايضة، وتسرع بالتالي من انحلال المجتمع النيوليتي ، وتأسيساً على ذلك ، فقد

دخل حوض دجلة والفرات العلوي والأوسط في كنف المدنيّة كمنطقة نيوليتية أولية ، بينما أصبحت كافة المجموعات الكلانية الأخرى ، سواء بلغت المستوى النيوليتي أم لم تبلغه ، في مواجهة الهجمات الخارجية التي شنها مجتمع المدنيّة من جهة ، وتجاه أساليب المجتمع الدولتي وممارساته في الاحتلال والاستيلاء والاستعمار والصهر والتصفية من جهة أخرى .

4)- سمات الثقافة الأيدلوجية للمجتمع النيوليتي:

اتسمت ثقافة أيديولوجية المجتمع النيوليتي بخصائص كانت من كينونة هذا المجتمع ، والتي تحولت إلى قيم يستحيل زوالها ، ولعل أهمها هي :

حقوق الأمومة ، التضامن الاجتماعي ، الأخوّة ، الود الخالي من المنفعة والمتطلّع فقط إلى مصلحة المجتمع ، الاحترام ، فكرة الفضيلة (الأخلاق)، التعاون النزيه بلا مقابل ، تقدير كل من ينتج القيم ويحيي المجتمع عن وجه حق ، الارتباط بالجوهر السليم والسوي لمصطلحي القدسية والألوهية ، حسن الجوار، التحسر والشوق الذي لا ينضب إلى المساواة والحياة الحرة ، وغيرها من القيم الخالدة .

5)-مفهوم مجتمع المدنيّة :

مجتمع المدنيّة :هو ذاك المجتمع المتنامي مع المدينة ، والمتحقق مع التمايز الطبقي ، والمُدار بالمنظومة المسماة بالدولة ، فالقرابة والتضامن السائدان في الأثنيات والقبائل ، قد يفتحان الطريق أمام تمايز اجتماعي في مستوى الهرمية بالأكثر ، في حين أن التقسيم الطبقي وبلوغ مستوى الدولة لا يتناسب وطبيعة القبيلة ، فالثقافة القبلية لا تتناغم والثقافة الطبقية الدولتية ، حيث أن الجوهر الأساس للتمايز الطبقي ، يكمن في الاستئثار بفائض الإنتاج المتزايد وادخاره ، وفي بسط الملكية الخاصة والنهب والسلب لوسائل الإنتاج ، وعلى رأسها الأرض ،ومثلما يقال: (فالملكية التي هي أقرب ما تكون إلى اللصوصية ، هي قيم مسروقة من المجتمع)، وتنظيم الدولة أساساً هو الأداة الجمعية القائمة على حماية هذه الملكية ، وعلى توزيع مجموع فائض الإنتاج على أصحابها ، أي أنها تعني تملّك الشكل المنتظم للملكية وفائض الإنتاج وفائض القيمة، وبطبيعة الحال ، فقد اقتضى ذلك طيلة التاريخ وجود الجيوش الجرارة والبيروقراطيات والأسلحة وأدوات الشرعنة ، ولهذا الغرض أُبتكرت العلوم واليوتوبيات

(يوتوبيا: أي لا مكان ، وهي تدل على دولة مثالية يتحقق فيها الخير والسعادة للناس ، وتُمحى الشرور) ، والفلسفات والفنون والقوانين والأخلاق والأديان التي تدور في فلك الدولة ، وعملت الميتافيزيقيا الخاوية من المعاني على تزوير الأدوار الاجتماعية لجميع هذه الفئات والتصنيفات ، وتشويه روابطها مع الحياة الحرة، والأساس هو بنيوية مجتمع المدنية ، والتي يتسم وجودها بخاصيتين أساسيتين وهما : البقاء والتزوير .

6)-سمات مجتمع المدنيّة :

يتسم مجتمع المدنيّة بسمات وانحرافات و تشويشات وأمراض اجتماعية مخالفة لطبيعة الحياة مثل : الكذب ، العنف ، الرياء ، الخداع ، الفظاظة ، الحيل ، الحروب ، النهب ، السلب ، الأسر، الإفناء الاستعباد والاسترقاق ، الغدر ، الاغتصاب ، الإجحاف ، انعدام الضمير ، دهس الحقوق والإخلال بها ، عبادة مبدأ القوة ، تحريف مبدأ القدسية والألوهية لتسخيره في خدمة حفنة من المنفعيين ، التعدي ، الاعتداء ، التعصب الجنسوي الاجتماعي ، الأكوام المتكدسة للعبيد والقرويين والعمال المتسكعين ، انغماس طرف في الامتلاك والترف والبذخ ، وموت الطرف الآخر من الجوع والفقر والبؤس ، ويبذل مجتمع المدنيّة جهوداً مريرة و ممنهجة بلا انقطاع في سبيل إخفاء وجهه الحقيقي ، مستفيداً من قدراته الدعائية ، ومواقفه الميتافيزيقية الرذيلة الزائفة .

7)-الثقافتان المادية والأيديولوجية في مجتمع المدنيّة :

تُفضي الثقافتان المادية والأيديولوجية في مجتمع المدنيّة ، واللتان تقتات عليهما الأقلية ، إلى مجتمع مريض من ناحيتين ، فهو غارق في بحر المادة ، و مبتور تماماً عن الأيديولوجية البيئية الحرة ،وما الحالات التي تُسمى فيها ب (القضايا الاجتماعية)سوى ثمرة التطور الدياليكتيكي (يقصد به الجدلية ، وهو الجدل او المحاورة ، أي تبادل الحجج والجدال بين طرفين دفاعاً عن وجهة نظر معينة ، ويكون مبنياً على المنطق)، لهذا السبب بالذات ينقطع مجتمع المدنيّة عن البيئة ، وهذا الانقطاع يكون أنطولوجياً (الأنطولوجي: علم الوجود ، أي إثبات وجود الله عز وجل) وليس نوعياً كما يُعتقد ، فكينونة مجتمع المدنيّة تستدعي بالضرورة انقطاعه عن البيئة ، والبيئة تقتضي مجتمعاً يتحتم فيه تخطّي المعاير

الأولية المكوّنة للمدنيّة ، أي أنها تشترط تجاوز الطبقة والمدينة والدولة ، وتخلق بذلك توازناً وتناغماً بين الثقافتين المادية والأيديولوجية ، وذلك من أجل بناء مجتمع جديد .

وعند تقييم مرحلة التأسيس الأول لمجتمع المدنيّة ، سيتجلى مشهد ثقافةٍ مادية عملاقة ، فالأهرامات المصرية ، وزقورات السومريين ، والمدن الصينية تحت الأرض ، ومعابد الهند ، والمدن والمعابد المماثلة في أمريكا اللاتينية ، كل ذلك يبسط أمامنا وجود الثقافة المادية ، أما الذي تتضمّنه ، أي الثقافة الأيديولوجية ، فيتجسد في الجثث المحنّطة ، هياكل الآلهة ، مسيرة الملك في الحياة الآخرة برفقة جيوشه، أي أن المعنى قد تجمّد ، أو أنه حُرّف بنحو مذهل ، وبالإمكان التشديد على مصطلح ال(أنا) في الحالة النفسية للإنسان ، وبغية إضفاء المعاني على هذه الأوضاع ، لكن ، من الواضح أن المعنى الحقيقي هنا يكمن في التغير والتحول في المجتمعية ، حيث لا يمكن أن يخطر ببال المرء مثل هذه البنى ، لولا وجود المجتمع أو صيرورته ، وتأليه الملك أيضاً موضوع ذهنيٌ صرفٌ ، إلا أنها ذهنية محرّفة وتدمّر الذهنية الأيديولوجية الأساسية التي تحقق وجود المجتمع ، وقد برزت على حساب الذهنية المجتمعية الحقيقية ، فكلّف ثمنها دمار الثقافة الأيديولوجية ، لذلك حاربتها الأديان التوحيدية الكبرى بمقتٍ واستياءٍ كبيرَين ، واعتبرت مناهضتها سبب وجودها ، أما هذا المجتمع المتمركز في المدينة، والذي ينظّم شؤونه كدولةٍ طبقية ، فيُفسَّر زخمه من الثقافة المادية المتمثّلة في الذهنية المنحرفة ، الميتافيزيقيا السيئة ، الخروج عن الطبيعة ، التحكم بالطبيعة والتفوق عليها ، وعرضه ذاته وكأنه ابتكار خارج الطبيعة وفوقها ، على أنه سقوط الثقافة الأيديولوجية إلى المرتبة الثانية ، وتعرضها للتحريف .

7)- مرحلة المقاومة :

1- المقاومة الأولى : تُفسر المقاومة الأولى على أنها تمرّد الثقافة الأيديولوجية ، وهي تتميز بأبعادٍ متعددة ، وتتضح المقاومة العظمى للمرأة إزاء حبسها في البيت ، وإتباعها للرجل في رسوم إينانا (إينانا : هي إلهة بلاد الرافدين القديمة ، والمرتبطة بالحب والجمال والجنس والرغبة والخصوبة والحرب والعدالة والسلطة السياسية)، وترمز الأسوار التي أحاطت بالمدن فور إنشائها، إلى تمرد كامل لثقافة الأثنيات الأيديولوجية ،

ويحمل مفهوم الإله الخالق والإنسان العبيد فبي أعماقه ، الصراع الطبقي العتيد ، حيث وُضع اصطناع الإله الخالق ، محل مفهوم الطبيعة – الإله الأصلي المفرّغ من محتواه ، وعندما تقوم الطبقة الحاكمة –التي لا علاقة لها بالخلق ، بل ومنقطعة عنه كلياً – بالإعلان عن ذاتها كإلهٍ مقنّع مبدع ، عبر تزوير أيديولوجي كامل ، فهي بالمقابل تقوم بوصف أعضاء المجتمع – أصحاب المقدسات والألوهيات النفيسة والمبدعة فعلاً – على أنهم خُلقوا من قُذاراتها ، لتشير بلغة ميثيولوجية إلى اندلاع صراعٍ طبقي ضروس.

2-ً المقاومات المتماسكة : تأتي تقاليد الأنبياء في صدارة المقاومات المتماسكة ، والتي تمكّنت من إيصال صوتها من مرحلة التأسيس الأولى لمجتمع المدنيّة إلى هذه الأيام ، فقصة آدام وحواء تمدُّ المرء أولى رؤوس الخيط التي توصله إلى الصراع بين السيد والعبد ، وما محادثات آدم مع الرب سوى مؤشّر للتمييز بين السيد العبد ، وأما علاقته مع حواء ، فهي عبارة عن ترميز لسقوط منزلة المرأة –الأم إلى المرتبة الثانية، وأما نجاة نوح من الطوفان ، فكأنها توحي بإنقاذ المجتمع النيوليتي من قبضة السيد الجبار ، إذ يحمله على متن السفينة إلى منطقة جبلية يستحل أن تطالها المدنيّة ، ليعيد بناءه من جديد ، فالقصة بالأصل تشرح حكاية المجتمع السومري والمجتمع النيوليتي الذي يجهد بدأبٍ للحفاظ على وجوده ، وما تقاليد هذين النبيين ،إلا ترجمة عن وجود المقاومة منذ المراحل الأولى.

وأما الجانب الخاص للتقاليد المبتدئة للنبي إبراهيم ، والمتمأسسة مع النبي موسى ، فيتجسد في إبداء الجرأة على الانقطاع الكلي عن المجتمعين المصري والسومري ، والتحلّي بالإرادة الرصينة لبناء مجتمعيهما ، ويرمز نمرود وفرعون إلى لقب الحكام في المجتمعين السومري والمصري أو دولتيهما ، وهما يتسمان بمزايا متمأسسة متأصلة ، ويعبران عن الحاكمية المطلقة ، ويصرّح كل من إبراهيم وموسى بثقافتيهما الأيديولوجية ، أي بمقاومتهما الذهنية ، عن عدم اعترافهما بهذه السيادة .

كما يُعدّ كلٌ من سيدنا عيسى ، وسيدنا محمد ، إصلاحيين عظيمين ، وذلك لأن الدينين المسيحي والإسلامي ، والمتشكلين في ظروف الإمبراطوريتين الساسانية والإغريقية –الرومانية ، هما نظامان عقائديان وأخلاقيان ، ويعدان حملة ثقافية أيديولوجية عظمى تجاه الثقافة المادية

المتضخمة في النظام العبودي ، وتجاه قيمه الأيديولوجية المصابة بالرعونة البليغة .

فلو كانا يعنيان بناء مجتمع حضري جديد ، لاتخذا من التكوينات المدنية والطبقية أساساً ، مثلما يُلاحظ في جميع البناءات الكلاسيكية ، أجل ، كانا يتطلعان إلى بناء المدن وتشكيل الطبقات ، لكنهما فعلا ذلك بقصد الوصول إلى قيمهما العقائدية والأخلاقية ، لا لكي يحاكيا مجتمع المدنيّة ، فالجوانب الطافحة فيهما لم تتمثل في الطمع بالسلطة ،أي في إحكام القبضة على الثقافة المادية ، بل تطلعا إلى بسط ثقافة أيديولوجية جديدة تصون البشرية وتحافظ عليها ، تجاه كيانات الثقافة المادية المتعاظمة ، والمفتقدة معانيها ، والمتخبطة في الحدود القصوى من الاختلال ، وبالتالي ، فإن نعت عصري المسيحية والإسلام بأن كلاً منهما نظام مدنيّة ، يتسم بالنقصان ، ويفضي إلى إدراكات خاطئة .

وأما بالنسبة لاعتبار سيدنا عيسى ، بأنه من طبيعية إلهية أم بشرية ، فهذا الموضوع تتخفى وراءه المداولات المذهبية الحادة ، والانشقاقات الكبرى ، والصراعات الضارية وذلك لأن أغلبية القائلين بكون عيسى من الجوهر الإلهي ، هم من الملتفين حول المسيحية الرسمية ، وقسطنطين (إمبراطور روما ، والذي أعلن المسيحية ديناً رسمياً في إمبراطوريته في القرن الرابع الذي تحول بهذا الإعلان إلى قرن المسيحية على وجه الكمال) شخصياً من المعترفين بهذا التفسير ، أي من القائلين بألوهية عيسى ، والجميع على علم بأن ألوهية الدولة هي الألوهية الرسمية ، والتي أرسى قواعدها الكهنةُ السومريون ، حيث يبدأ- لأول مرة – انقسام الأديان إلى شطرين اجتماعيين مع السومريين ،في حين أن ألوهية الإنسان هي من بقايا ثقافة المجتمع النيوليتي ، أو أنها تحتضن في ثناياها بقايا مهمة من تلك الثقافة ، وللوثنية أيضاً جوانب مشابهة ، أما الطرف المقابل ، اي القائلون بطبيعة عيسى البشرية ، فيمثلون التفسير أو الميول الدينية للمجموعات الأخرى غير المتدوّلة ، إنه تماماً كالتمييز في الديانة الإسلامية بين المذهب السني (دين الدولة)، والمذهب العلوي (دين المجتمع الذي خارج الدولة).

فالمسيحية شهدت تحولين عظيمين في القرن الرابع :

1- التحول الأول : تحول المسرحية إلى دين الدولة ، وهو دين المدنيّة الذي أُريد به النفاذ من الأزمة المعنوية الخانقة للثقافة المادية في روما ،أي إضفاء الصبغة الشرعية .

2- التحول الثاني: هو تجمهر المسيحية، حيث خرجت المسيحية في القرون الأولى بحالتها الظاهرية من كونها عقيدة مجموعات ضيقة من القديسين ، لتغدو الدين الرسمي أو غير الرسمي لسواد المجموعات الشعبية ، والأرمن والآشوريون والهيلينيون واللاتينيون ، هم أول الشعوب المتنصّرة التي تخطر على البال.

وأما فيما يتعلق بالإسلام ، فهو موضع أكثر تعقيداً ، فتمدنه السريع ، وصراعه مع اليهودية والمسيحية منذ أولى أيام ظهوره ، وتخبّطه في التناقضات والشقاقات المذهبية حتى الأعماق ، كلها أدلة كافية للإشارة إلى مدى تعقيد القضية ، حيث يُعتبر القرنان السابقان لسيدنا محمد ، كأزمة المراحل الأخيرة للمدنيّة العبودية ، فالمسيحية كانت قد استمدت قوتها من هذه الأزمة ، ونجحت في أن تكون أول تنظيم شامل للشرائح الاجتماعية الفقيرة ، وبالفعل ، اكتظّت تلك القرون بعدد لا يُحصى من الأديرة ، بل وجذبت اهتمام الشعوب الفقيرة ، لتنجح في أن تكون قوةً بديلة .

وبناءً على ما سبق ، فلا بد من شرح انطلاقة الإسلام ، استناداً على العناصر التالية :

1- الإسلام هو الدين الأخير للتقاليد الإبراهيمية ، ويبني نفسه تأسيساً عليها ، وهكذا ، تعود جذور ركائزه إلى انطلاقة من طراز إبراهيم ، والتي ترجع إلى ما لا يقل عن ألفي عام ، ومن هنا يُستنبط الصراع العربي -- اليهودي بأنه صراع بين مذهبَي دينٍ واحد، ليس إلا .

2- تُطلق تسمية الجاهلية على الذهنية السائدة في مكة التي خرج منها الإسلام وهذا ما يعني بأن الإسلام شكل من أشكال انتقاد وثنية مكة .

3- أما فيما يتعلق بتحاور سيدنا محمد شخصياً مع الرهبان النسطوريين (النسطورية هي عقيدة تؤمن بأن يسوع المسيح مكون من جوهرين ، يعبر عنهما بالطبيعتين الإلهية والبشرية)، فهذا يدل على إمكانية إقامة روابط مع المسيحية .

4- يصرّح سيدنا محمد عن صلاته مع التجارة كعامل لدى خديجة ، ثم كزوج لها .

5- يتأثر الإسلام بشدة بالوسط القبلي العائد في دعائمه إلى آلاف السنين والحيويّ دائماً في الأوساط العربية.

6- مرّ الإسلام بآخر عصور الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية البهية.

فبناءً على العناصر السابقة ، يكون الإسلام ثمرة الظروف المادية والتاريخية الوطيدة ، وأنه لم يتطور كمعجزة في الصحراء ، وبقدر ما ترتبط قوته بهذه الظروف ، ترتبط بها نقاط ضعفه أيضاً ، فهو ليس جميعة حضارية جديدة على غرار الحضارة السومرية الأولى ، أو الرومانية الأخيرة ، بل يطفح جانبه كحركة عقائدية وأخلاقية ، فسيدنا محمد نفسه ، ليس شخصية غامضة مثلما إبراهيم وموسى وعيسى ، فالكثير من خصائصه معلومة ، ورسالته المتجسدة في القرآن ، لا تخاطب قوماً أو قبيلة أو طبقةً معينة ، بل تستهدف البشرية جمعاء ، ومصطلح (الله) الذي يرد ذكره في القرآن أكثر من المصطلحات ، يشكل في حقيقة الأمر محور النشاطات اللاهوتية ،ومحمد موجود في أعماق تأثير هذا الاصطلاح ، ويعتبره (الرب)، أي سيد العالمين ، وهذه الكلمة مذكورة بكثرة في الكتاب المقدس ، وكلمة الله ذات الاصطلاح المُجيد بهذا القدر ، توحّد في محتواه سوسيولوجيا بين ألوهية الطبيعة ، والألوهية المجتمعية .

فالصفات الحسنى التسعة والتسعون (أسماء الله الحسنى)التي يشملها ويتميز بها ، هي تعبير عن التأثير المشترك للقوى الطبيعية والاجتماعية ، في حين أن (الأوامر والشرائع الأبدية) التي يتطلع منسوبه إلى فهمها ، تحفها هالة من الغموض وبقدر ما تكون الأوصاف ذات المنشأ الاجتماعي مرحليةً عابرةً ، فكذلك لا يُعد كل مظهر طبيعي قانوناً بحد ذاته ، بيد أن القانونية والتشريعات هي ثمرة الإفراط في ضوابط وقواعد القبائلية اليهودية ، إذ يمكن الحديث عن النزعات والميول التي طالما يغلب طابعها في المجتمع ، وسيؤدي هذا المفهوم التشريعي لاحقاً إلى التعصب الشديد في المجتمع الإسلامي، وأما مدى إيمان سيدنا محمد بالله ، فهو يعيّن قوته الميتافيزيقية ، وعلى الأقل ، فاعترافه بوجود قوة تفوقه ، يجعله لا يُصاب

بمرض التألّه الذي نجده سائداً في الحضارات الممتدة من أيام سومر إلى عهد روما .

وأما بالنسبة للجانب الثقافي للإسلام، فقد تعادلت الثقافتان المادية والمعنوية فيه ، فالحديث النبوي (اعملْ لآخرتك وكأنك تموت غداً، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) يكشف كفاية عن هذه البنية المتعادلة ، والكلّ على علم بنبذه الأنظمة الرومانية والبيزنطية والساسانية ، بل وحتى الفرعونية والنمرودية الكلاسيكية ،وانتقاده إياها بصرامة ، إنه بجانبه هذا ناقد قدير للمدنيّة ، وهو بذلك شبيه بعجز اشتراكيي الزمن الحديث عن تطوير البديل اللازم ، لكن مناشدته الحثيثة إلى التشبث بالأخلاق تُشير إلى مدى إدراكه لأمراض مجتمع المدنية ، وهو بجانبه هذا إصلاحي عتيد ، بل و ثوريٌ لا يعترف بالمجتمع الذي تغيب فيه الأخلاق ، والقواعد التي سنّها لسد الطريق أمام الربا في رأس المال ، أعاقة التوجه نحو الوضع المَرَضي للمجتمع الرأسمالي ، وانطلاقاً من هذه المزايا البنيوية لدى سيدنا محمد ، فيمكن الاستشفاف مباشرة كونه أكثر تقدميةً من المسيحية واليهودية ، فجنوحه إلى نبذ العبودية أمر معروف ، وهو رحيم عطوف ، وميّالٌ إلى التحرير إلى أبعد حد ، ورغم بُعد مقارباته عن الحرية والمساواة فيما يخص المرأة ، إلا أنه يستاء من العبودية الغائرة للمرأة ، ويمقتها ، وفيما يتعلق بالخلاصة التي يمكن استنباطها من وجود العديد من الجواري والزوجات لديه ، فهي احتضانه هاتين النزعتين معاً ، لقد كان يعترف بالملكية والفوارق الطبقية في المجتمع ، لكنه –كشخصٍ ديمقراطي اجتماعي – كان يتطلع إلى سد الطريق أمام الاحتكار وبسط النفوذ الاجتماعي ، وذلك عن طريق الإفراط في جباية الضرائب والإتاوات .

فسيدنا محمد ، كوّنَ توازناً ذكياً في الإسلام ، لم يجنح إلى ثقافة مادية مختلة ، ولم يرغب في الاقتصار على ثقافة أيديولوجية محضة، فهذا الوضع يوضح كفاية دوافع تعززه ، سواء إزاء قوى المدنيّة ، أو إزاء الكيانات الأيديولوجية والثقافية الأخرى ، وربما لم تستطع أية حركة اجتماعية –عدا كهنة سومر ومصر – من إبداء المهارة والحذق اللازمين لتمكين صيرورة التحام الثقافتين المادية والأيديولوجية ، بقدر ما كانت علية الحال في الإسلام .

الخاتمة:

بناءً على ما سبق ،فقد استخلص القائد والفيلسوف عبدالله أوجلان القول، بأن نظام المدنيّة الدولتيّة ، الذي برز اعتماداً على التكوين المتداخل للطبقة والمدينة والدولة ،والذي يطوّر نفسه بالتكاثر المتواصل دون انقطاع ،حتى وصل رأس المال المالي (الطور الأخير للرأسمالية) ،إنما يعتمد بالأرجح على استغلال وقمع المجتمع الزراعي و الريفي ، كما يضمّ طبقة كادحي المدن المتّسعة مع الزمن إلى نظامه الاستغلالي القمعي ، والهيمنة الأيدولوجية ،هي المصدر الأساس الذي تنهل منه المدنيّة الدولتية المعمّرة خمسة آلاف عام ، قدرتها الأساسية في الحفاظ على صيرورتها إلى اليوم الراهن ، وذلك بصورة مضادة للحضارة الديمقراطية التي ترتكز على ظروف زمانية ومكانية ، ربما هي أطول عمراً.

***

الفهرس:

1_المقدمة .

2_مرحلة تل حلف وأثرها في المجتمع السومري .

3_تعريف الزقورات .

4_الوظائف الرئيسية للزقورات .

5_الكاهن وأعماله الأساسية .

6_أوضاع المرأة والعائلة في نظام الزقورات .

7_دور الزقورات في التجارة .

8_ظهور دولة السلالة بعد مجتمع دولة الكهنة .

9_مزايا ثقافة مجتمع المدنيّة .

10_ أهم إنجازات مجتمع المدنيّة .

11_خاصيّات مجتمع المدنيّة .

12_دور الدين في مجتمع المدنيّة.

13_دور الفلسفة في مجتمع المدنيّة.

14_دور الفن في مجتمع المدنيّة.

15_دور الأخلاق في مجتمع المدنيّة.

16_دور الاقتصاد في مجتمع المدنيّة.

17_قضايا انتشار مجتمع المدنيّة.

1"_ قضايا توسّع المدنيّات ذات الأصول السومرية والمصرية.

2"_ التطورات في ثقافة الصين والهند والهنود الحمر .

3"_ المدنيّات ذات الأصول الإغريقية - الرومانية وقضايا توجهها .

18_مراحل مجتمع المدنيّة وقضايا المقاومة.
19_الخاتمة .